مكتبة الأسرة .. ثقافة دينية راقية لكل الأسرة

هذه قدوتي

قصص وسير .. بلغ أصحابها ذرى المجد..
لكل أفـراد الأسرة



أحمد الجوهري عبد الجواد

أول للنشر والتوزيع

هذه قدوتي

© حقوق الطبع محفوظة للناشر

اسم الكتاب: هذه قدوتي

المؤلف: الشيخ / أحمد الجوهري عبد الجواد

المقاس: ١٧ × ٢٤ سم

رقم الإيداع: ٢٠٠٧٦ / ٢٠١٩

الترقيم الدولي: ٣-١٤-٦٧٥٣-٩٧٧-٩٧٨

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار أصول للنشر والتوزيع.
ولا يجوز طبع أية جزء من الكتاب أو ترجمته لأي لغة أو نقله أو حفظه ونسخه على أية هيئة أو نظام الكتروني أو على الإنترنت دون موافقة كتابية من الناشر وإلا سيعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

المراجعة اللغوية والإخراج الفني: فريق العمل بدار أصول للنشر والتوزيع.

الخطوط وتصميم الغلاف: دار أصول للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٤١ هجري - ٢٠٢٠ ميلادي



البريد الإلكتروني : Info@osoulgroup.net
موقعنا على الإنترنت : www.osoulgroup.net
تابعونا على : @DarOsoulGroup
هاتف / واتساب : +201225367116
هاتف / واتساب : +201555553485

مكتبة الأسرة.. ثقافة دينية راقية لكل الأسرة

هذه قدوتي

قصص وسير لرجال ونساء بلغوا فدا المجد
أقدمه قدوة .. لكل أفرد الأسرة

تأليف

أحمد الجوهري محمد عبد الجواد

من علماء الأزهر الشريف

أصول

للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم



إلى أسـرتي أبي وأمي وزوجي وبناتي وولدي.. وإلى كل أسـرة مسـلمة؛ جـدًّا وجـدّة ووالـدًا ووالـدة وبنيـن وبنـات.. أهـدي هـذه السلسـلة الكريمة غـذاء لعقولهم وتربية لقلوبهم وإمتاعًا لأرواحهم.

أبو حفص



كلمة في البداية

كان يا ما كان.. يا سادة يا كرام.. وما يحلو الكلام إلا بذكر النبي، عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

كان فيه ثلاث أخوات.. حفصة وريحانة.. وخديجة كمان..

كانوا كل يوم يقولون لـ «أبيهم وأمهم»:

حفصة: أبي، احك لنا قصة!

ريحانة: صحيح يا أمي!

خديجة: جميل، قصة جميل!

وكان «الأب» من كثرة القصص التي حكاها قد نفد ما عنده من القصص المعروفة، وفي يوم من الأيام جرَّب أن يحكي لهم قصة تشتمل على موضوع كبير، يبني في قلوبهم وعقولهم المعارف الواسعة ويكسبهم العلم الكثير.

وكان التفكير في سلسلة من الكتب تهتم بتأصيل علوم الإسلام وتقريبها إلى جميع أفراد الأسرة «الأجداد والزوجين والأحفاد» في اختصار وإيجاز، بأسلوب جميل ممتع، وطريقة تربوية نافعة.. تؤسس العلم والمعرفة في العقول وتغرس الخشية والتقوى في القلوب.

وتأتي هذه السلسلة في مجموعة من الكتيبات، يختص كل واحد منها بجانب من جوانب العلم الشرعي على النحو التالي: هذه قدوتي، هذا ربـــي، كلام ربي، هذا نبيي، أنا أتعلم حديث نبيي، هذه عقيدتي، أنا أتفقه في ديني، هذه أخلاقي، هذه بلادي.

وقـــد اهتمت السلســـلة بتقديم المعارف والعلـــوم بطرق حديثة مبدعة تجمع بين القصص الممتعة والرسوم الجذّابة، مع ألغازٍ مُدْهِشةٍ، ومعانٍ جميلةٍ.





الحمد لله ربِّ العالمين، وأصلِّي وأسلِّم على أفضل خلقه محمَّدٍ سيِّد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدِّين، أما بعد فيُسعدني أعزائي الآباء والأمهات والبنين والبنات أن أقدِّم لكم هذا الكتاب الجميل، وهو يضمُّ قصصًا ممتعة وسِيَرًا مشوِّقة من حياة مجموعة من أفاضل الناس، من الرجال والنساء والبنين والبنات، كانوا قدوةً في مجالهم، وضربوا أعظم المُثُل في النجاح والتفوُّق، فلهذا استحقوا أن يكونوا أسوة لمن أراد أن يأتسي بهم ومن طلب أن يتفوق مثلهم، وقد حرصت على أن يكون فيهم القدوة في مجالات متنوعة ونواحٍ متنوِّعة، وكذلك اهتممت أن يكونوا بموضع القدوة لجميع الأعمار من الكبار والصغار.

وأرجو أن تعيشوا معهم بقلوبكم ومشاعركم، وأن تستفيدوا من تجاربهم لحياتكم، وأن تقبسوا من هديهم وأدبهم، وأن تغاروا من جدِّهم واجتهادهم.

ولا يفوتني هنا أن أقول: إنَّ هذه السلسلة الطيبة -ومنها هذا الكتاب الكريم- قد صنعت خصيصًا للأسرة المسلمة لتستمتع معها بدفء العلم ولترتاح معها إلى نور الفهم، حين تجتمع الأسرة كلها جدًّا

وجدَّة ووالدًا ووالدة وبنين وبنات، على قراءتها كل ليلة فيشع في البيت نـــور يغمر القلوب وهـــدى يعمر النفوس وســـكينة تطمئن الجوارح.. بلغنا الله وإياكم خير الدنيا والآخرة.

وأترككم الآن مع صفحات الكتاب، داعيًا لكم بالخير.

أحمد الجوهري محمد عبد الجواد



شمس الأئمة

خرج محمد ذو الأعوام الخمسة من البيت إلى الشارع يجري تسابق قدماه الريح وذلك حينما سمع الصوت المميَّز لديه.. كانت أمُّه تقف خلف الباب تنظر وتبتسم في سعادة لصنع ولدها الصغير وقد أدركت الأمر فلم يكن ذلك بالجديد على صغيرها الذي كان كلما سمع ذلك الصوت انطلق ليستقبل والده على مشارف البلدة الصغيرة فما كان ذلك الصوت المميز إلا بمثابة الإعلان عن وصول القوافل التجارية، ووالده كان أحد التجار المرموقين في ناحيتهم، ومن عادة الصغير إذا علم بوصول والده أن يكون أول من يستقبله من أهل البيت..

تابعت الأم ولدها بناظريها حتى غاب ثم عادت إلى عملها تسرع في إنجاز ما تبقى لها من شئون البيت لتستقبل زوجها وهي على يقين بأنه سيكون هنا في غضون ساعتين، تلك عادته التي لا تتخلف منذ سنوات.

تمتمت بين نفسها بكلمات، ثم عاودت فارتفع صوتها بها، كانت تقول: فلنعم التاجر ولنعم الرجل، الحمد لله الذي رزقني بمثله ثم أقر أعيننا عاجلًا بنعمة الولد، اللهم اجعل لي أحمد ومحمد وإخوتهما خير ذرية واجعلهم مباركين وانفع بهم العباد والبلاد.. آمين.

وصل محمد إلى مشـــارف البلدة وعلى صخرة عالية هناك وقف يشاهد قوافل التجار وهي تمر عابرة باب السور تدخل القرية واحدة بعد الأخرى، ثم لمح راية بيضاء فوق بعير ضمن قافلة فأشـــرق وجهه وافترَّ ثغره عن ابتســـامة جميلة، وظل يتابعها حتى حاذت السور ثم دلفت إلى الباب وهنا نزل يتقدم نحوها مســـرعًا حتى إذا وصلها جال ببصره يمنة ويسرة فلمح والده في مؤخرة القافلة فأقبل إليه يسعى مسرورًا وأبصره والده فأقبل إليه هو الآخر يشتد فاتحًا ذراعيه عن آخرهما حتى احتضنه بين يديه وضمه إلى صدره ورفعه في الهواء مرارًا يمازحه ويلاعبه..

- أهلًا بك يا أبي، حمدًا لله على سلامتك.
- مرحبًا بك يا محمد، الحمد لله، بارك الله لك وسلمك الله من كل سوء.. منذ متى وأنت تنتظر هنا يا محمد؟
- من ســـاعة يا أبي، بحثت عن قافلتك في القوافل فوجدتها في أوسطها، ثم بحثت عنك في القافلة بين الرجال حتى وجدتك في آخرهم!
- تلك عادتك يا محمد، وهي عادة طيبة!
- أشـــتاق إليك يا أبي، تطيل الســـفر، ثم تحضر فما إن أســـمع الإعلان عن وصول القوافل حتى أطير إلى هنا شـــوقًا لرؤياك قبل جميع الناس، ولأملأ عيني منك فأعوض الأيام الماضية.
- وأنـــا والله أشـــتاق إليك، وأدعو لك ولإخوتك في ســـفري، وأيضًا أشتري لك الهدايا التي تحبها.

- بارك الله لنا فـي عمرك يا أبي وفي رزقـك ودام فوقنا ظلك ولا حرمنا عطاءك.

- آمين، اللهم اسـتجب، هيا اذهب فبشر والدتك يا محمد، وأنا بعد ساعة سأكون في البيت، ريثما أرتب البضائع في المخازن وأسلم أمانات التجار.

- لبيك يا أبت، لكن لو تسمح لي بسؤال قبل أن أذهب سألتك!

كان إسماعيل يعرف في ولده محمد النجابة والفطنة الفائقين فعلم أن سـؤاله ليس شيئًا يعطله عن عمله ولا لغوًا يؤثر عليه غيره أو يؤجله، فنظر إليه مشجعًا وقال:

- تفضل يا محمد، قل وأنا أسمعك!

- لماذا يا أبت تكون في آخر القافلة وأنت رئيسها؟

ارتسـمت على وجه الوالد ابتسـامة كبيرة واقترن ذلك بمد يديه يحمل محمـدًا من فوق الأرض فوضعه على يده وألصقه بصدره وظل يقبله وهو يقول: قد علمت أن لك قلبًا عقولًا، ولسـانًا سـؤولًا، وعينًا لمَّاحة، وأسأل الله أن ينفع بك أمة الإسلام، هذا أملي منك وأسأل الله أن يحققه لي.

ثم قال: جواب سؤالك يا محمد: هذه سنَّة نبينا محمد ﷺ فإن إذا كان مـع أصحابه في طريق الذهاب إلى الغزوة يكون في المقدمة، وإذا كانوا قافلين في العودة يكون في المؤخِّرة.

تدري لماذا يا محمد؟ يكون فـي المؤخرة؛ ليتفقد الضعيف من الناس وليحمل عن العاجز ويسـاعد من يحتاج المساعدة، وحين يغزو يكون في المقدمة لماذا؟ ليشـجع الناس ويرونه فيتأسون به ويقدِمون؛ لأن المقدمة تدل على الشجاعة، وعلى قوة العزيمة.

هيا الآن لتدرك أمك فتخبرها، فإنه أباك جائع لتجهز الطعام.

مضـى محمد يهز رأسـه ويقول: لقد فعلت يـا أبت، قد ذبحت خروفًا سـمينًا، وجهزت طعامًا لذيذًا، ثم سلم على والده وأسرع يعدو إلى البيـت بينما انصرف «إسـماعيل» يتمتم بكلمـات تظهر حروفُها سلسلة من الدعاء لولده أن يبارك الله فيه وأن يتولَّاه.

***

وصـل «محمد» إلى البيت فوجد أمه وإخوته بانتظاره، مجتمعين يتحدثون، ما إن رآه أخوه أحمد حتى ابتسم وقال:

- عند محمد الخبر اليقين.

نظر إليه محمد وسأله: وما ذاك؟

فأجابته أمه في عجلة: متى يأتي أبوك يا محمد؟

فقال: أبشـروا، لن يمضي كثير وقت حتى يكون أبي هنا، بمشيئة الله، وأيضًا سيأتي معه بالهدايا.

- الهدايا، قد أخبرك أبوك إذن بما أحضره لك!

- لا والله يا أحمد، قد أخبرني بأنه اشترى لنا الهدايا، كما هي عادته، ولم أسأله عن شيء آخر، فإني أستحيي أن أسأله عما لم يخبرني عنه، إلا أن يكون علمًا أتعلمه.

- ولم يا محمد!

- أخبرني شيخي بذلك يا أمي، ما كان في غير العلم فهو فضول وتركه أولى من السؤال عنه، وقد يجر إلى ما لا يستحب، أما في العلم فالأمر مختلف، وفي الحديث: «إن الله لا يستحيي من الحق» وفي الأثر عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «لا يتعلم اثنان؛ مُسْتَحْيٍ ومستكبر»، أليس كذلك يا أخي!

- بلى يا محمد، صدقت وبررت، وإني لفخور بك وبحفظك وأدبك يا محمد، زادك الله وزانك.

- بارك الله فيكما يا ولديَّ ونفع بكما وأجزل مثوبتنا فيكما.

قالت الأم هذا وقامت إلى ما بقي لها من شئون المنزل، بينما بقي محمد وأحمد يتحادثان، بانتظار وصول والدهما.

***

لم يمض وقت طويل على انتظارهما إذ سرعان ما سمعا صوت الباب يُطرق وصوت أبيهما من خلفه يناديهما فقاما إليه مسرعين ففتح أحمد الباب واحتضنه والده وقبله وكذا فعل بمحمد وهو يمازحه قائلًا: لا مانع من مرة أخرى.

وحضرت الأم فسلم عليها الوالد وبثها أشواقه، وكانت قد فرغت من إعداد الطعام فساعدها الجميع في وضعه على المائدة وجلسوا يأكلون، وأثناء ذلك دارت بينهم الأحاديث وتطرقوا إلى كل شأن حتى قال الوالد:

- كيف حالك يا محمد عند الشيخ «أبي حفص» في الكُتَّاب؟
- الحمد لله يا أبت، بخير، أجتهد في تنفيذ كل ما يطلبه مني وأبذل غاية جهدي في تحصيل ما يمكنني تحصيله.
- جميل يا محمد، بارك الله علمك وعملك وسدَّد فهمك..

ثم التفت في جدية بعد أن رآهم أعرضوا عن الطعام في شبع وأصغَوا إلى حديثه في شوق وقال لهم: يا زوجتي الكريمة ويا أبنائي الأحباب اسمعوني جيّدًا فإني أريد أن أفضي إليكم بحديث لم أحدثكم إياه من قبل، وأريد أن تحفروا ألفاظ ما أقول في قلوبكم وتعيه أفئدتكم ويكون بين أعينكم تتذكرونه ولا تنسونه أبدًا.

انجذب الجميع لحديث الأب في اهتمام بالغ وتابعت عيونهم شفتيه انتظارًا لما يقوله.. فاعتدل الأب في جلسته وقال:

منذ سنوات عديدة يا أعزائي كنَّا أهل بيت يدين بغير الإسلام، فمن الله تعالى علينا واعتنق جدُّنا (المغيرة) هذا الدين الحنيف، فدخلت علينا السعادة، ورزقنا الصفاء، ووسع علينا الرزق وحل علينا رغد العيش.

وها نحن كما ترون بفضل الله تعالى نسعى ونروح في فرح وسرور مع رزق وفير وعيش رغيد، مع زوجة وأبناء طيبين لكن هذا لم يكن قط أملي من الحياة.. فهذه كلها وسائل إلى الأمل الذي أتمنَّاه وأرجوه.

نظر أحمد إلى والده وتساءل:

- وما هو ذلك الأمل يا أبتاه؟

- منذ ذلك الحين الذي حدثتكم به يا بني وغاية أمانينا من الدنيا أن نخدم هذا الدين الذي سعدنا في جواره ليرضى الله عنا، وقد وعيت على الدنيا فوجدت جدِّي رحمه الله تعالى ثم أبي يوصيانني بأن أبذل كل جهدي في كل خير من شأنه أن يزيد هذا الدين رفعة ويحقق عزَّه، والحمد لله تعالى قد سعيت في هذا قدر ما أمكنني، لقد سعيت إلى عواصم الإسلام الكبرى والتقيت أئمة الإسلام العظام واشتغلت بالعلم والتحصيل وحملت عنهم علمًا وحدثت عنهم لكني أجد في قلبي الشوق إلى فعل ما لم يفعله أحد وتقديم ما لم يقدمه أحد، والحال كما تريانها أني قد صرت في شغل عن تحقيق ذلك الأمل، ففكرت: إذا ما لم يستطع الإنسان تحقيق أمله بنفسه فإنه لا يعجز أن يحققه بواسطة أبنائه فإن عمرهم بالنسبة إلى عمره هو امتداد له، وفي حديث النبي ﷺ أنه قال: «**إذا مات ابنُ آدمَ انقطع عملُه إلا من ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتفَعُ به، أو ولدٌ صالح يدعو له**».

- أدامك الله فوق رؤوسنا يا أبا الحسن!
- رزقك الله الصحة ووهبك العمر المديد مع حسن العمل يا أبي!
- شكر الله لك يا أم الحسن، ولك يا أحمد.

تابع الأب حديثه في هدوء وتركيز، فتابعته الآذان مصغية لكلامه، وهو يقول: وما زلنا يا بَني ونحن في هذه الديار نسمع شيوخنا ومعلِّمينا يذكرون لنا حديث أبى هريرة قال: قال رســول الله ﷺ: «**لو كان الدين عنــد الثُّريَّا لذهب بــه رجلٌ من فارس** -أو قال مــن أبناء فارس- **حتى يتناوله**»، وقد سمعت علماءنا يتحدثون بهذا الحديث فمنهم من يقول: قد ظهر ذلك بالعيان حين ظهــر الدين في بلادنا هذه وكثر فيها العلماء وكان وجودهــم كذلك دليلًا من أدلة صدقه ﷺ فيما أخبر.. لكن الذي غلب هذا التفسير قول آخر يعتبر هذا الحديث نبوءة لم تتحقق وأنها آتية وأن المقصود بهذا الحديث رجل من بلادنا هذه يفيد هذا الدين بخدمة ويقدم له عملًا لم يفعله أحد ســبقه ولا يدركه أحــد لحقه وإنَّ أملي يا أبنائي الكرام من هــذه الدنيا أن يكون لي نصيب في هذا الرجل فيكون من أبنائي وذريتي وإني أحدثكــم اليوم بهذا الحديث لتعرفوه فإن يكن أحدكم فإني أحمد الله تعالى على ذلك، وإن لم يكنه فليعمل كل منكم على أن يكون من أبنائه.

ثم التفت إلى زوجته وقال:

- ما ســعيت ولا اتجرت ولا عملت ولا تعبت يا أم الحسن إلا من أجل هذا الهدف، وإني لأحــب أن أبذل مالي هذا كله لله

علـــى أن يكون هذا الرجل من أبنائي، ومـــا هذا المال كله إلا شيء قليل في تحقيق هذه الأمنية، فإن أعش لكم فإني ساع في تحقيقهـــا راج ربي في أن يقر عيني بها، وإن أمت فالله الله في هذا، فإنها أمانة أضعها في رقبتك، واستعيني على ذلك بمالي هذا كله وإني والله ما جمعت درهمًا فيه إلا من حلال، ما أعلم فيه درهمًا من حرام ولا درهمًا من شبهة.

- بارك الله لك في مالك وعمرك ومـــدَّ في أجلك يا أبا محمد، وتقبَّل دعاءك بصلاح ذريتك، نعم إن شاء الله نسعى لهذا كلنا معًا، فأنا وأنت نســـدد ونقارب، ويجتهـــد أحمد ومحمد في تحصيل العلم وخدمة الدين بكل ما يسعهما من جهد.

نظر الأب إلى ولديه وقال: وعيتما ما قلته يا أحبابي؟

فقال: نعم، يا أبت!

فتابع: ولي عندكما هذا الوعد بالجد والاجتهاد؟

- نعم يا أبت.

هزَّ الوالد رأسه وقال: الحمد لله تعالى، قد أفضيت بهذا الحديث إليكما، وقد كنت أتحيَّن له الفرصة المناســـبة، وإن أمت بعد هذا فإني أموت مستريحًا، وأنا أرى أملي هذا في أعينكم يتجدَّد.

قال هذا ثم نهض وهو يودعهم: ســـأمرُّ على دار الحديث وأنا في الطريق إلى المسجد ثم أصلي العصر وأقضي بعض الشئون قبل المساء.

في دار الحديث التقى إســماعيلُ الشــيخَ «أبا حفص» فسأله عن أحــوال تلميذه الجديد «محمد» فأخبره أنه شــديد الإعجاب به، لأدبه وذكائه ووفور ذهنه، وكان الأب يســتمع في انتباه لما يقوله تلميذه عن ابنه، فلما انتهى أوصاه به خيرًا، وأن يكفله ويرعاه كابنه، وذكره بما يكون في ميزان حســناته من نبوغ هذا الطالب واجتهاده إن كان شيئًا مذكورًا، وإنه ليرى فيه أنه كائن، بمشيئة الله، فلا يألو جهدًا ولا يدخر وسعًا دون محمد فإنه يحمد ذلك في الدنيا والآخرة إن شاء الله.

استمع أبو حفص لكلام شــيخه باهتمام حتى انتهى ثم وعده بأن يبذل ما في وسعه ليحصِّل محمد العلم والخير راجيًا أن يكون له الأجر على كل ما قاله شــيخه أبو الحســن.. ثم قال: لو وجدت بعض الوقت لديك يا سيدي قصصت عليك رؤيا رأيتها في منامي أمس، فعبرتها لي، بارك الله في عمرك وعلمك!

فقال أبو الحســن: خيرًا رأيت يا أبا حفص، وخيرًا يكون إن شاء الله تعالى.

فهز أبو حفص رأسه وقال: إن شاء الله يا شيخنا، إن شاء الله، ثم تابع:

رأيت الليلة في منامي رســولَ الله ﷺ، عليه قميص، وامرأة إلى جنبه تبكي، فقال لها: لا تبكي، فإذا متُّ فابكي.

فماذا يعني هذا يا سيدي؟

أشــرق وجه أبي الحســن بابتسامة وقال: إن الســنة قائمة بعدُ يا أبا حفص!

وكأنما ساق الله إليك هذه الرؤيا لأعزِّز بها ما كنا نتحدث فيه الآن من القول، وأتمنى أن يكون لولدي هذا من رؤياك هذه نصيبًا.

أمَّن أبو حفص على دعاء شيخه، وشكره على تعبير رؤياه،

ثم ودعه أبو الحســن وغادر دار الحديث فــي طريقه إلى صلاة العصر في المسجد، وبعد الصلاة ذهب إلى مخازنه فالتقى العمال ومن كان من التجار هناك في عجلة، ثم عاد أخيرًا إلى البيت مع المساء فوجد أهل البيت بانتظاره فتحاوروا ساعة ثم قاموا إلى صلاة المغرب والعشاء ورجعوا فأخلد الوالد إلى النوم مبكرًا ليزيل عنه عناء السفر، وسرعان ما لحقه الجميع فراحوا في نومهم هانئين.

عند الفجر قام الأب والأبناء فأدوا الصلاة في جماعة المســجد وانتظروا إلى إشراقة النهار ثم قفلوا إلى البيت عائدين، وما إن دلفوا إلى الداخل حتى نادى الوالد:

- يا أم الحسن!

خرجت أم الحســن تسعى وهي تشعر بشــيء غريب في صوت زوجها، أكد شعورها ذاك ما رأته في وجهه من الإعياء، فقالت:

- مالك يا سيدي؟!

أشــعر بتعب شديد وأحتاج إلى الراحة قليلًا، لكني لن أنام فليس

في عيني نعاس، فكونوا إلى جواري أحدثكم وآنس بكم، إن لم يكن بيد أحدكم عمل فينصرف إليه.

قال هذا ثم ترنح فجأة يريد أن ينقض على الأرض واقعًا، فأسرعت الزوجة تسند زوجها من جهة ويسنده أحمد من الجهة الأخرى واتجهوا نحو السرير وتقدم محمد ففتح باب الغرفة، وهناك على السرير استلقى الوالد في إعياء شديد تجهده أنفاســه التي تخرج متسارعة، ولم يتكلم بعدها بكلام كثير، لكنه أشــار إلى محمد ليتلــو عنده بعض القرآن، ثم أشار إلى أحمد إشــارة فهمها على الفور، لقد كان والده يريد كتابًا من المكتبة فقام يضع يده عليها واحدًا بعد الآخر، فبدرت كلمة «ســفيان» من بين شفتي والده ففهم أحمد أنه يريد «جامع سفيان الثوري» فالتقط الكتاب وعاد إلى جوار والده في هدوء فأشــار إليه أن اقرأ ففتح أحمد الكتــاب وظل يقرأ مدة والجميع جلوس يســتمعون، ثم وجدوا الوالد يرفع بصره ويشير بأصبعه إلى السماء يدعو، ثم سقطت اليدان وأسلمت الروح إلى بارئها.

***

«مــات الرجل التقي الورع الذي تصاغــرت أنفس العلماء إليهم برؤية علمــه وعمله وتحرِّيه الحلال في كَسْــبه، مات صاحب «مالك» وتلميذه، ومعلم العراقيين، مات تلميذ حمَّاد وأبي معاوية، وأستاذ أبي حفص ونصر بن الحسين.. مات في ريعان فتوَّته وترك من خلفه أحمد يناهز الصِّبا، ومحمدًا لم يبلغ بعد السادسة من عمره».

كانت أم الحسن تحدث نفسها بهذه الكلمات بعد رحيل زوجها بأيام، فقد كان قلبها يحزن لفراقه، وعينها تدمع، لكنها كانت تحتسبه عند ربها راضية مرضية بقضاء الله وقدره فلا تقول إلا ما يرضي الله ويرضى الله به عنها، ولقد وجدت البشرى في قبول الله له بمن وفق الله لحضورهم إيَّاه، والصلاة عليه، وتشييعه، ودفنه، من علماء وعباد لم يتركوا شيئًا حسنًا إلا قالوه بشأنه وأثنوا عليه به، وهؤلاء هم شهداء الله في الأرض.

الحمد لله كثيرًا، على ما أعطى وما أخذ، وسلام عليك يا أبا الحسن في الخالدين، وإني على طريقك ماضية، وفي سبيل تحقيق غايتك وأملك لصابرة مصابرة.

قطعت تفكيرها طرقات خفيفة على الباب، فعلمت أنه «محمد» قد حضر من الكتاب، فقامت تفتح وهي تحاول أن تزيل آثار الدموع عن عينيها وخدَّيها، وبالكاد استقبلته هاشَّة، فسلم عليها ورحب بها وسألها عن حالها وسألته، ثم أحضرت له ماء فشرب ووضعت الطعام الذي جهزته له في جرابه، ليعاود الخروج ثانية، فودعته إلى الباب وهي تقول: بارك الله لك في وقتك وسدد فهمك ونفع بك وحفظ عليك عقلك وعلمك!

خرج محمد وهو يقول: آمين، سلمت يا أمي، تقبل الله دعاءك، وكتب لك بمثله!

كانت هذه عادة محمد منذ مات والده قد ضاعف جهده مرتين أو ثلاثًا، وصرف وقته كله لتحصيل العلم لا يكاد يدخل البيت إلا لطعام

وشـــراب ومنام في آخر الليـــل، أما باقي النهار فهو فـــي الكتاب يتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن لدى الشـــيخ، وظل على هذا سنتين ختم خلالهما القرآن وكرره مرات، حتى قال الشـــيخ له: بلغ أمَّ الحسن عني أنك قد ختمت القرآن ولم تعد بحاجة إلى معلِّم يعلمك القرآن فإنك قد صرت اليوم فيه بدرجة معلِّمك.

فلما بلغت الكلمات أمَّ الحسن طارت فرحًا، وأرسلت أخاه «أحمد» إلى الشـــيخ «أبي حفص» يستأذنه أن يبدأ «محمد» القراءة عليه في حديث رسول الله ﷺ، فاستحســـن طلبها وعظَّمَه وأجابها إليه، وصار البخاري يذهـــب إلى كتَّاب «أبي حفص أحمد بن حفـــص» فيما بعد يقرأ الحديث ويحفظه، وكان أحب الكتب إليه يومئذ «جامع سفيان» ذلك الكتاب الذي كان والده هو الآخر يجلُّه وكان آخر عهده بالدنيا سماع أحاديثه.

كانت أمنية أبي الحســـن التي حدث بهـــا زوجه وأبناءه ماثلة أمام عيني الزوجة الوفية ليل نهار، لا تخطئ تتذكرها وتحرص على الاقتراب منها وكذلـــك كان يفعل ابناها ولم تغب عن بـــال الزوجة المباركة قط كلماته وهو يفارق الحياة حين أدناهم ليوصيهم وصيته الأخيرة ويجدد فيهم التذكرة بأمله وحين أمال رأس محمد خاصة لتصل الكلمات أذنيه وكأنه ينجذب إليـــه انجذابًا، ويخصه بالكلمات دون من حوله قائلًا له: «لقد تركـــت لك ألف ألف درهم، لا أعلم منهـــا درهمًا من حرام، ولا درهمًا من شـــبهة، وإني لأحب أن تنفقها جميعًا في تحصيل العلم وفي سبيل تحقيق هذا الأمل.

وكان الشـيخ «أبو حفص» إذا سـمع هذا قال: رحمه الله تعالى، وأصدق ما يكون الرجل عند الموت.

ثم يوصـي محمدًا بالجد والاجتهاد، ويفـرح إذ يجد من محمد طاعة لكل ما يقوله وامتثالًا لما يرشده إليه.

***

كان محمدٌ على عادته من الدأب والجد والاجتهاد يخرج كل يوم إلى صلاة الصبح فلا يعود حتى يتوسـط النهار، فيأتي لرؤية أمه وتزوده بالطعام ليعاود الذهاب مرة أخرى حتى العشاء، وكانت أمه على عادتها من تشجيعه وحثِّه على التعلم ووصيته إذا خرج، ومساعدته بما تستطيعه إن حضـر، والدعاء له من ورائه إذا ذهب، حتى كان يوم من الأيام ولما يبلغ محمد العاشـرة من عمره، كانت قد ودعته للخروج إلى درسه فما إن خرج من البيت ومضى وقت قليل سمعت والدته الباب يطرق طرقًا قويًّا متتابعًا فخرجت فزعة تنادى:

- من؟ من الذي يطرق الباب بهذا الهلع!

- افتحي يا أم الحسن، افتحي الباب!

ميَّزت أم الحسن صوت بعض جاراتها في جملة الواقفين بالباب ففتحت الباب مسرعة وقالت:

- ماذا حدث؟

- ابنك محمد، يا أم الحسن!

- ماذا به؟ يرحمك الله!

- قد اصطدم بالجـدار فوقع على الأرض فـي الطريق وحمله بعض الرجال وهو عند الطبيب الآن، فأسـرعي حتى تكوني إلى جواره.

أسـرعت أم الحسـن إلى الداخل، فارتدت ملابسها، وخرجت تسـعى، معها جارتها تلك ترافقها، وأوصت من بقي من الجيران أمام الـدار إن رأوا ابنها «أحمد» أن يخبروه الخبـر ليلحق بها عند الطبيب، وأسرعت تحثُّ الخطى.

***

وصلت أم الحسن إلى المشفى فوجدت ابنها ممدَّدًا على الفراش مسـتلقيًا على ظهره، ينظر نحوها بعينيه لكنه لم ينتبه لها، فوقع في قلبها الظنـون، ثم تقدمت إلى إحدى الممرضات فسـألتها عن ولدها ما به؟ فقالت: لا شـيء، كما ترين، لكنه يخبر أنه لا يـرى بعينيه وقد فحصه الطبيب فوجده فعلا كذلك، لكن لم يتوصل إلى سبب لهذا بعد!

صدمت الأم مما سمعت ثم تقدمت نحو محمد وهزته هزًّا رفيقًا ونادته، فانتبه لها وأجابها، فسألته:

- ما بك يا محمد؟ كيف حدث لك هذا؟

- خرجت من البيت يـا أمي على عادتي، وبينمـا أنا في بعض الطريق فجـأة لم أعد أرى شـيئًا أمامي فتقدمـت إلى جدار

فاصطدمت به وسقطت على الأرض، فأتاني أولئك الناس الطيبون وحين أخبرتهم بذلك حملوني وجاءوا بي هنا إلى «البيمارستان» المستشفى، ففحصني الطبيب، وأخبرته بما أخبرتك به الآن.

- وهل تشكو شيئًا في جسدك يا محمد!

كان الطبيب قد حضر في هذه اللحظة فسمع إجابة محمد لوالدته وهو يقول: لا يا أمي لا أشكو شيئًا، غير أني لا أراك ولا أرى شيئًا بعيني، فعقب الطبيب قائلًا:

- أما نحن فقد بذلنا كل الأسباب التي نقدر عليها، ولا نملك غير الدعاء، فأكثري من الدعاء له يا أم محمد، عسى الله أن يستجيب لك.

ثم تابع: يمكنك اصطحاب محمد للمنزل، وليباشر أموره المعتادة، حتى لا يعطله ذلك عن هدفه، وارضوا بقضاء الله وقدره.

نهض محمد قائمًا، وساعدته أمه على ذلك وعادت به متجهة إلى البيت، وفي الطريق لقيهما أحمد، فعرف منهما ما كان، فبكى وهدأت أمه من روعه وصبرته، قائلة: إن شاء الله سيجعل الله لنا مخرجًا.

وتابعت المسير إلى البيت يتلألأ أمامها أملها الدائم فتوقن بقرب حصوله، ثم تنسحب على ذلك الأمل غمامة الواقع الذي يصور لها ابنها أمامها مريضًا أعمى لا يرى أمامه فيشككها ذلك في تحقيق الأمل،

وكانت في كل ذلك تقول: لا حــول ولا قوة إلا بالله، وظلت في دعاء وذكر ومناجاة حتى وصلوا إلى البيت.

***

كان أحمد يرافق أخاه محمدًا إلى الدروس حتى لا تفوته، وكانت أمهما إذا خرجا من عندها، أو حضرا فأويا إلى فراشهما فرشت سجادة الصلاة ثم فزعت إلى ربها تسأل حاجتها الذي يجيب حوائج السائلين، تضرّعت وابتهلت وبكت ولزمت باب ربّها تطرقه مناجاة ودعاء ونداء، لم تجزع ولم تقنط، قامت فــي الليل ودعت في النهار حتى أجاب الله دعاءها وسمع لبكائها، وكأنّما الأم المسكينة أخذتها سنة، أو غلبها النوم لشــدة تعبها وإجهادها فنامت، فرأت في منامها البشرى بمعافاة ولدها وردّ الله بصره عليه، لم تره هو معافى ينظر إليها فحسب، وقد كان ذلك كافيًا في البشــارة، لكن رأت نبيَّ اللــه وخليله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقــول لها: يا هذه، قد رد الله على ابنك بصره، ثــمّ يعلّل لها هذا الأمر ويبين لها ســبب تلك المنحة الإلهية بقوله: «لكثــرة بكائك»، أو قال: «لكثرة دعائك».

وهذه كرامة في طياتها كرامات لأم الحسن رضي الله تعالى عنها:

- كرامة ردّ الله بصر ابنها بعد ذهابه.
- وكرامة التجائها إلى ربها وتذللها له.
- وكرامة رؤياها خليل الله في المنام.

- وكرامة أن يكون الخليل رسول الله إليها يحمل البشرى بذلك الأمر.
- وكرامة الكشف عن كمال النهايات بعلو كعبها وكعب ابنها بتلك البدايات.

وهذا كلُّه مما يبيِّن مكانتها عند الله تعالى.

عاد إلى محمد بصره وتحسن حاله وصار يخرج وحده إلى حلقات العلم ومجالس الشيوخ وكان يختلف سوى كتاب أبي حفص إلى حلقات المحدثين في بلده فجعل يختلف إلى الحلقات، وقد ظهر نبوغه عند الشيوخ باكرًا، فها هو يجلس عند بعض شيوخه بعد هذه الحادثة بقليل وله يومئذ إحدى عشرة سنة فقط وكان الشيخ يقرأ من جامع سفيان الثوري فقال الشيخ يومًا فيما كان يقرأ للناس: سفيان، عن أبي الزبير، عن إبراهيم، فقال له «محمد»: هذا يا شيخنا خطأ: إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم.

فزجره الشيخ وقال له: كيف تقول هذا؟

فقال محمد: أنا على يقين مما أقول وارجع إلى الكتاب الأصلي فانظر فيه هل تجده!

وبالفعل دخل الشيخ فنظر في الكتاب، ثم خرج، فقال لمحمد: كيف هو يا غلام؟

فقال محمد: هو الزبير بن عدي، عن إبراهيم.

فهز الشـــيخ رأســـه موافقًا على كلامه ثم أخـــذ القلم من محمد، وأصلح الخطأ الـــذي في كتابه، وقال لمحمد: صدقت، هو كما قلت.. بارك الله في علمك وفهمك!

وهكذا علا صيت محمد وذاعت شهرته في الحلقات والدروس وعرفه الشيوخ والمدرسون، ولم يبق شيخ ولا مدرس في البلد إلا وأخذ «محمـــد» كل ما عنده من علم بالصبر والمصابـــرة والجد والمذاكرة.. وكذا فعل مع شـــيوخ البـــلاد المجاورة وكبار مدرســـيها في المدارس والمجامع المرموقة والجوامع العتيقة واســـتطاع وهو ابن اثنتي عشرة ســـنة فقط أن يؤلِّف كتابًا عن «قضايا الصحابة والتابعين»، وعرضه على شـــيوخه فاستحسنوه وأشـــادوا به. وكان مدرسوه وشيوخه ممن عرفوا بالدقة والضبط والإتقان والرســـوخ في العلم، بل إن كثيرًا من أئمة علم الحديـــث في هذه البـــلاد كانوا يهابون حضور «محمد» في دروســـهم ويتـــرددون في الرواية خوفًا من أن يقع منهم خطأ أو وَهْمٌ أثناء حضوره مجالسهم وكانوا يعرضون عليه كتبهم للتصحيح.

حدث مرة أن كان في أحد المجالس عند بعض شـــيوخه فأخرج الشيخ كتابه وطلب إلى محمد أن ينظر فيه ويبين له ما فيها من خطأ وأن يصوبه، وكان بعض أصحاب الشـــيخ عنده حاضرًا فلما سمع ذلك قال له: من هذا الفتى حتى تقول له هذا وأنت من أئمة العلم في هذا العصر؟ فقال الشيخ لصاحبه: هذا الذي ليس له مثل.

وكان محمد خلال ذلك قد ناهز السادسة عشرة من العمر فجمع خلالها قـــدرًا كبيرًا جدًّا من الأحاديث.. ليس هذا فحســـب، لقد أغرم

«محمد» بحفظ الأحاديث وما زالت هذه الرغبة تنمو وتزداد فيه، وأيضًا كان حريصًا على تمييز الأحاديث الصحيحة من غيرها، ومعرفة علل الحديث والاطلاع على أحوال الرواة ومعرفة عدالتهم وضبطهم وأمانتهم وصدقهم ومعيشتهم ومسكنهم ومولدهم ووفياتهم ولقائهم فيما بينهم، ومقارنة الأسانيد بعضها ببعض، ومعرفة اتصالها وانقطاعها، واستنباط المسائل الفقهية وغيرها من الأحاديث ومقارنتها بالآيات القرآنية، لقد كان مغرمًا بهذا كله، ولا يمر عليه ليل أو ينقضي نهار إلا وهو يتوسع في ذلك أشد التوسع، وكانت هذه الأفكار تتسع وتترسخ في نفسه وتتقوَّى في قلبه.. ثم إنَّ «محمدًا» لم يكتف بعلوم الحديث فقط، بل طلب الفقه كما طلب الحديث وأصبح على علم كامل بأقوال الفقهاء ومسائلهم الاجتهادية.

ذات يوم كان «محمد بن إسماعيل» عند شيخه «محمد بن سلَام» وكان من أعظم علماء الحديث في عصره وكان يشهد لتلميذه «محمد بن إسماعيل» بالذكاء وسعة الحفظ وسيلان الذهن، فحضر عنده في مجلسه ثم قام، وأثناء مغادرته دخل الشيخ العلم سليم بن مجاهد فقال له محمَّد بن سلام: لو جئت قبل قليل لرأيت هنا صبيًّا يحفظ سبعين ألف حديث.

فتعجب سليم من كلامه وقال من أين ذهب وأنا أسعى خلفه، فأشار إليه ابن سلام وقال: من ههنا، فخرج مجاهد في طلبه حتى أدركه فناداه فانتظر، فلما لقيه قال له: أنت الذي تقول أنا أحفظ سبعين ألف حديث؟

فقال محمد: نعم، وأكثرَ منـــه، ولا أجيئك بحديث من الصحابة أو التابعين إلا عرفت مولدَ أكثرهم ووفاتهم ومســـاكنهم، ولست أدري حديثًا من حديـــث الصحابة أو التابعين إلا ولـــه أصل أحفظ ذلك عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

كل هذا ومحمد لم يخرج من بلادهم القريبة ولم يرحل إلى غيرها من البلاد البعيدة، ثم اشـــتاقت نفسه إلى مزيد من العلم ففكَّر في السفر إلى عواصم الإســـلام الكبرى مكة والمدينة وبغـــداد وغيرها ليحصل مزيدًا من العلم بحديث رســـول الله ﷺ ونوى أن يحدث أمه بهذا فلما فاتحها وجد منها الترحيب الشـــديد والرغبة المشـــجعة على ما نوى، وكذلك وجد التشـــجيع والتحفيز عند أخيه أحمد، وعلى الفور فوَّض الجميع أحمد في ترتيـــب الرحلة إلى مكة المكرمة مع أوَّل قافلة تعتزم الخروج إلى الحج في عامهم هـــذا، ولم يكن بقي على خروجه الكثير من الوقت، فبقوا يسابقون الأيام في إعداد زاد السفر وما يحتاجونه من شـــئون وترتيبات لرحلتهم ومع هذه التجهيزات وما قارنها من الشعور بهذا التحوُّل الجديد في المكان والمكانة عادت الأســـرة تشـــدو ذلك الأمل العظيم وتتذكر ذلك الحلم الجميل ويطوف بأذهان أفرادها صورة الوالد «إســـماعيل» ووصيته وأمانته التي تركها في أعناقهم، وكانت «أم الحسن» أكثرهم تعلقًا بتفاصيل الأحداث في الماضي والمستقبل على الســـواء، ولهذا كانت أنشـــطهم وأكبرهم حثًّا على بلـــوغ الهدف كأنها تسابق العمر قبل أن يسبقها الأجل.

خرج «محمد» مع أخيه وأمّه في رحلة الحج، ووصلوا إلى الحجاز «منبع العلوم الإسلامية، وموطن الرسول ﷺ، ومَهبِط الوحي، ومُنزَل جبريل، ومسكن أصحاب رسول الله ﷺ، ومركز الإسلام» مكة المكرمة بعد مدة من الزمان، فأدوا مناسك الحج كاملة، وكانت ذكرى «أبي الحسن» لا تفارق الأسرة في كل موضع يذهبون إليه من الأراضي المقدَّسة؛ إذ حدَّثهم أنه في حجته لقي من كان بها من العلماء والمحدثين فسمع منهم حديث رسول الله ﷺ، وحينما زار المسجد النبوي سمع ممن كان منهم هناك أيضًا.. وعادت الأم تستنشق عبير الأمل الذي حدثهم به أبو الحسن يتجدد لكنه اليوم قريب أقرب من أية ساعة مضت.

وفي نهاية أيام المناسك ودعت أمُّ الحسن ولدَها «محمدًا» وعادت مع الرحلة برفقة أخيه أحمد، وتركا محمدًا وراءهما في مكة يتلهف للازدياد من العلم ويتشوق لملء أذنه وقلبه من حديث رسول الله ﷺ، ومعه من المال ما يبلغه مقصده تسانده أمه وأخوه من ورائه ويسددانه بالدعاء له في سفرهما الطويل وبعده في مقامهما ببلدهم البعيدة، وتغلب «محمد» على حنينه إلى أمه وتحمل فراقه لأخيه وتصبَّر على مفارقة موطنه بأنه هنا قريب من ذاك الأمل الذي لم يخبو نوره في نفسه يومًا من الأيام، ويتلألأ أمام عينه كل حين قوله ﷺ: «**لو كان الدين عند الثُّريَّا لذهب به رجل من أبناء فارس حتى يتناوله**».

لم يترك «محمد» مجلسًا سمع به في مكة إلا هرع إليه، ولم يأته الخبر بوجود أحد من أئمة الإسلام قد نزل بالبلد الحرام حاجًّا أو معتمرًا

إلا زاره وأخذ ما عنده من حديث رســول الله ﷺ، حتى حصَّل علومًا كثيرة جمَّة، حتى أيقن أنه قد فرغ من حديث أصحابها الأئمة، وســافر عنها من كان فيها من الحجاج منهم، قصد إلى المدينة النبوية وذلك بعد ســنتين من البقاء في مكة، فكان عمره ثمانية عشر عامًا وهو في الطريق إليها يبغي تحصيل علوم أهلها، قضى هذين السنتين وهو في مكة يعمل على تحصيل العلم ليل نهار، بلا ملل ولا كلل، بل بحب وأمل.

وحين وصل المدينةَ النبويةَ كان عملــه فيها بالمثل من عمله في مكة، وبقي بها مدة كذلك لقي فيها أكابر الأئمة وســادة الشيوخ وعلماء الإسلام الكبار.

ومن المدينة رحل إلى عواصم الإسلام الكبرى ومراكزه العلمية المرموقة: البصرة والكوفة وبغداد والشــام ومصر وكل بلد يجتمع فيها أهل الفضل والكمال من حملة حديث رســول الله ﷺ من كل ناحية، وكان في كل مرة يخرج فيها من بلد منها يودعه شــيوخها وأهلها عرفانًا بعلمــه وإدراكًا لفضله وتقديرًا لمكانته فإنه كان في أحيان كثيرة يفيدهم من العلم أكثر مما يستفيد منهم، فقد كتب «محمد» في رحلاته هذه عن ألف شيخ وزيادة فحصَّل بذلك علمًا لا يستغني عنه أحد.

وكانت تحــدث له في أثناء هذه الرحــلات مواقف كثيرة، ركب البحــر مرة في أيام طلبــه وكان معه ألف دينار ذهبًــا، فجاءه رجل من أصحاب الســفينة، وأظهر له حبَّه ومودته وأصبح يقاربه ويجالسه فلما رأى «محمد» حبَّه وولاءه مال إليه وبلغ الأمر أنه بعد المجالسات أخبره عن الدنانير الموجودة عنده.

وذات يـــوم قام صاحبه مـــن النوم فأصبح يبكـــي ويعول ويمزق ثيابه ويلطم وجهه ورأســـه، فلما رأى الناس حالته تلك أخذتهم الدهشة والحيرة وأخذو يسألونه عن السبب؟ وألحوا عليه في السؤال، فقال لهم:

عندي صرة فيها ألف دينار وقد ضاعت!

فأصبح الناس يفتشـــون ركاب الســـفينة واحدًا واحـــدًا، وحينئذ أخرج «محمد» صرة دنانيره خفية وألقاها في البحر، ووصل المفتشون إليه وفتشوه أيضًا حتى انتهوا من جميع ركاب السفينة، ولم يجدوا شيئًا فرجعوا إليه ولاموه ووبخوه توبيخًا شديدًا.

ولما نزل الناس من الســـفينة جاء الرجل إلى «محمد» وسأله ماذا فعل بصرة الدنانير؟

فقال: ألقيتها في البحر !

قال: كيف صبرت على ضياع هذا المال العظيم؟!

فقال له «محمـــد»: يا جاهل أتدري أنني أفنيـــت حياتي كلها في جمع حديث رسول الله ﷺ، وعرف العالم ثقتي، فكيف كان ينبغي لي أن أجعل نفسي عرضة لتهمة السرقة؟!

وهل الدرة الثمينة (الثقة والعدالة) التي حصلت عليها في حياتي أضيعها من أجل دراهم معدودة؟!

ثم مضى «محمد» في ســـبيله وأرســـل إلى أخيه يبعث إليه بنفقة فتأخـــرت عليه نفقته حتى جعـــل يتناول نبات الأرض وورق الشـــجر

يأكله.. وهكذا عانى من ضيق العيش فـي بعض هذه الرحلات إضافة إلى معاناته من شدة السفر وأخلاق بعض الناس.

***

عرف أهل كل بلد نزل فيها «محمد بن إسماعيل» قدره وجلاله في العلم، لما رأوا من إقبال شيوخهم وعلمائهم عليه يسألونه ويستفسرونه ويحتاجون إليه في ضبط ما يعرفونـه وتصحيح ما يعلمونه، وكان أهل كل بلد يقبل عليها وتترامى الأخبـار بعزمه على دخولها يخرجون هم وعلماؤهم في مقدمتهم لاستقباله فلقي الحفاوة في كل رحلة ارتحلها وكل سفرة سافرها.

وكانـت تلك الأخبار تصل إلى شـيوخه في بلـده وما جاورها فيفخرون به ويعدونه من مدائحهم، وما إن يحمل إليهم طلابهم شـيئًا من ذلك حتـى يذهبون بها إلى أمـه فيخبرونها بهـا، فتطمئن على أن مساعي ولدها ذاهبة إلى تحقيق أمل والده في العمل لعزِّ الإسلام ورفعة المسـلمين، وكانت كل حين ترسل إليه فيأتيها أو ترسل إليه أخاه أحمد فتزوده بما يحتاجه من نفقات.

ولم يزل «محمد» كذلك حتى أجمع أهل العلم في بلاد الإسـلام جميعًا أنه قمر ذلك الزمان وبدره الذي بعلمه يهتدي جميع أهل الحديث.

حتى إنه ذهب مرة إلى شـيخه إسماعيل بن أبي أُوَيس فاختار من كتابه بعض الأحاديث وكتبها ليرويها عنه، فلما انتهى البخاري من ذلك قام ابن أبي أويس بنسـخ تلك الأحاديث لنفسـه، وقال: هذه أحاديث

انتخبها محمَّد بن إسماعيل من حَديثي!

وكانوا يشبهونه بمالك بن أنس فيقولون: لو أدركتم مالكًا، ونظرتم إلى وجهه ووجه محمَّد بن إسماعيل، لقلتم: كلاهما واحد في الحديث والفقه.

ومدحوا عقله وأدبه وعمله كما مدحوا علمه، حتى قال العالم الجليل قتيبة بن سعيد: جالست الفقهاء والزهاد والعباد، فما رأيت منذ عَقَلْتُ مثل محمَّد بن إسماعيل، وهو في زمانه كعمر بن الخطاب في زمانه في الصحابة، ولو كان محمَّد بن إسماعيل في الصحابة لكان آية.

وهذه الأقوال لم تكن مبالغة من أصحابها، وكيف تكون مبالغة في شأن رجل جمع فقه الأئمة الأربعة وجمع ما لدى علماء الإسلام من أحاديث السنة المطهَّرة، ثم أقبل يعمل بذلك كله، ويشتد في العمل كأن ليس يحسن غيره؟! وذلك بشهادة شيوخه وأصحابه وزملائه.. فهو بحق فاضل العلماء وعالم الفضلاء.

وقد ألف الإمام «محمد بن إسماعيل» في الحديث وعِلَلِه ورجالِه مؤلفاتٍ كثيرةً، تقدَّم فيها بهذه الفنون تقدمًا كبيرًا، وبلغ بها الغاية، وكانت عمدة لمن جاء بعده، منها التواريخ الثلاثة: «الكبير»، و «الأوسط»، و «الصغير»، و «الضعفاء»، و «المتروكين»، وغيرها.. وقد استفادت الدنيا كلها من كتبه هذه من يوم تأليفها إلى يومنا هذا.

لكن يبقى أجلُّ كتبه وأشهرها، وهو أعظم كتاب في السنَّة النبويَّة على الإطلاق، كتابه: «الجامع المسند الصحيح المختصر من

أمور رســـول الله ﷺ وســـننه وأيامه»، الذي جمع فيه ما هو على شرطه من الحديـــث الصحيح، وقصد فيه إلى اســـتنباط الفوائد والأحكام من الأحاديث، فكان أول كتاب في الإسلام اقتصر على الأحاديث الصحيحة المسندة المجرَّدة، واســـتغرق في تأليفه وتحريره ستة عشر عامًا، وصار أبرز كتب الحديث النبوي عند المسلمين من هذا الوقت إلى يومنا وإلى ما شاء الله حتى تقوم الساعة، فهو أصحُّ كتاب بعد القرآن الكريم.

***

يقـــول الراوي: كان «محمد بن إســـماعيل» يومًا في مجلس عند شـــيخه إســـحاق بن راهويه فقال إســـحاق: «لو جمعتم كتابًا مختصرًا لصحيح ســـنة النبي ﷺ، فوقع هذا القول في قلـــب «محمد» فأخذ في جمع الكتاب، ثم إنه كان ذات يوم نائمًا فرأى النبيَّ ﷺ في المنام وكأنَّه جالس و«محمد بن إســـماعيل» واقف بين يديـــه وبيد «محمد» مروحة يـــذبُّ عنه ﷺ، فلما انتبه «محمد بن إســـماعيل» من نومه ســـأل بعض المعبِّرين الذين يفســـرون الرؤى فقال له: إنك تذبّ عن رسول الله ﷺ الكذب، فشجعه ذلك على إخراج كتاب الصحيح.

وهكذا كان طلب إســـحاق بن راهويه أولًا ثـــم جاءه المنام فأكَّد ذلك ومن هنا عزم «محمد» على تصنيف الكتاب الذي ســـمعه منه في حياته فقط أكثر من ســـبعين ألفًا من التلاميذ وانتشرت نسخه ومروياته في بلاد الإســـلام كلها، وامتدت شهرته إلى جميع الآفاق، ولاقى قبولًا واهتمامًا فائقين مـــن العلماء فألِّفت حوله الكتب الكثيرة من شـــروح ومختصرات وتعليقات ومستدركات ومستخرجات وغيرها مما يتعلَّق

بعلوم الحديث، حتى نقل بعض المؤرخين أن عدد شروحه وحدها بلغ قريبًا من مئة شـــرح.. وقد بقي هذا الكتاب حيًّا حاضرًا في حياة الناس مـــع امتداد الزمن حتى وقتنـــا هذا وما زال النـــاس يقرؤونه ويحفظونه ويشرحونه.

وبتأليف «محمد بن إســـماعيل» لهذا الكتـــاب حقَّق الأملَ الذي ائتمنه عليه والدُه وفاز بالبشـــارة التي نبَّأ بها رسول الله ﷺ، وكان ثوابه العظيم في ميزان حسنات «محمد» وأبيه وأمه وأخيه وشيوخه.. رحمهم الله أجمعين.

وقد عُرف الكتابُ قديمًا وحديثًا على ألسنة الناس والعلماء بِاْسم «صحيح البخاري»، لأن مؤلفه هو الإمام «محمد بن إسماعيل البخاري» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأصبح هذا الاختصار لاسم الكتاب معهودًا معزوًّا إلى الإمام البخاري للشهرة الواسعة للكتاب ومصنِّفه فيقال: «صحيح البخاري»[1].



(١) اقرأ في ســـيرة الإمام البخاري: ســـيرة الإمام البخاري سيد الفقهاء والمحدثين؛ العلامة الشـــيخ عبد الســـلام المباركفوري، نقله إلى العربية الدكتور عبد العليم بن عبد العظيـــم، حياة البخاري؛ العلامة محمد جمال الدين القاســـمي، الإمام البخاري؛ عبد الســـتّار الشـــيخ، الإمـــام البخـــاري وكتابه الجامـــع الصحيح؛ عبد المحسن البدر، وغيرها.



رحلة النور

استيقظ الطفل «زكريا» مفزوعًا من نومه على صيحات وعويل يصدر عن نساء في الدار، أخذ يبحث حواليه عن سبب لذلك فلم يدركه، لكن ألسنة النساء اللاتي امتلأت بهن الدار لا تكف عن ذكر اسم والده «محمد»، ظلَّ يتجوَّل بين النساء وهو يلحظهن ينظرن إليه، كان يبحث عن أمِّه وسط هذه الملاءات والأوشحة السوداء الكثيرة..

أخيرًا وصل إليها، بعد لأي ومشقة، وفور أن رآها ارتمى في حضنها وأسلم نفسه إليها، وكأنها هي الأخرى كانت تنتظر حضنًا تستدفئ به من برد وركنًا تستند إليه من خور وضعف، فضمته إلى صدرها، وقبَّلته، وما لبثت أن عاودها البكاء ففاض دمعها أنهرًا، حتى أصاب صدر الصبي من ذلك بلل غطاه وغمره.

ومد «زكريا» يده يمسح دموع أمه وسألها: لماذا تبكي يا أماه؟ فقالت ودمعها يسابق حروفها: مات أبوك يا «زكريا»، قد صرت يتيمًا يا ولدي، اجتمع عليك اليتم مع الفقر، لك الله تعالى يا بني، هو وحده يرعاك ويصونك في حاضر أيامك ومستقبلها.

لم يفطن الطفل الصغير إلى مقصد أمه من الكلام فسمعه والتزم الصمت.. لعله يفهم من الحال ما لم يفهمه من المقال!

دفن الوالــد، وبقي الناس يعودونه هو وأمه بعد ذلك أيامًا، ثم بدأ العــوَّاد مع مرور الأيام يقلُّون، حتى لم يعد أحد يأتيهم، واضطرت الأم إلى الخروج من المنزل لمباشــرة العمل فــي أرضهم الصغيرة ورعاية مواشــيهم، فقد كانت هذه مهنتهم التي فيها يعملون ومنها يتكســبون ويتقوَّتون، وما عساهم يفعلون غير ذلك في «سُنَيْكَة» هذه القرية الفقيرة الحال القليلة الموارد؟!

آن لها أن تســعى على ذلك اليتيم لتقيَه ضرَّ الجوع وشــرَّ العُري وبؤس الحاجة، وكانت لصغره تصطحبه معها غالب الوقت إلى الحقل وفــي الطريق، إلا ما ندر من وقت يقضيه فــي الكتاب عند معلم القرية يعلمه القراءة والكتابة ويحفظه شــيئًا من القــرآن، ووقتًا آخر يكون بين لداته من الصبيان يلعب معهم ويمرح ناســيًا لبعض الوقت يتمه وفقره كما ينسى الأطفال!

وبين هذه المواضع الثلاث كانت الأيام تسعى بزكريا وهو يسعى داخلها: الكتاب الــذي تطوَّر بعد ذلك إلى حضــور حلقة تدرَّس فيها بعض العلوم الشــرعية بالمســجد لمن هم في مثل عمره وفطنته ممن ختمــوا القرآن الكريــم حفظًا وتجويدًا، والحقــل، وقليل من اللهو أو مسامرة الخلان..

شبَّ «زكريا» وشبت معه مرارة الحرمان لم تفارقه وترعرعت معه مصاعب المعيشة لم تغادره، وكانت فترة قاسية شديدة القسوة، حفرت في داخله آثارها وغرســت فيه جذورها، ونمت معه في مراحل عمره..

لكنه رغم هذا كله كان حديث القرية في شبابه كما كان كذلك في صباه وطفولته، فعن ذكائه وفطنته، وعن بديهته وهمَّته، وعن إحرازه السبق بين أقرانه في كل علم وعمل يرجى له ويوكل إليه.. يدور حديث القوم في كل نادٍ وسامر.

لم يكن لزكريا وأمه بسبب فقرهم وعيلتهم كبير علاقة بالناس، لهذا ما كان يزورهم سوى العم (ربيع وزوجه) وهما من جيرانهم الأدنين، وكان الزوجان الكريمان من المحسنين.. قد رقق الله قلبيهما على الطفل وأمه فاشتركا معها في تربيته والنفقة عليه، حتى إن «زكريا» كان يعتبرهما أمه وأباه...

وذات يوم كان ربيع وزوجه عند «زكريا» وأمه يزورانهما وجرى الحديث نحو الحلقة وبروز نجم زكريا بها، فقال العم «ربيع» وكان رجلًا فطنًا ذا نظر بعيد ورؤية ثاقبة مع حظٍّ من العلم:

- يا أم زكريا!
- نعم يا شيخنا «ربيع»!
- ألا تكرمين «زكريا» وتتكرمين معه بكرامة العلم والفضل!
- فقالت الأم العاقلة: وما ذاك، أشِر عليَّ وأنا طوع أمرك، ولا أحتجب عن تكرمة ما استطعت ولا أمنعها عن «زكريا» ما قدرت، فبم تشير علينا؟
- إن زكريا قد أصاب ما عند شيوخنا جميعًا من علم، وكذلك عند من نعلمه من أهل القرى المجاورة أصاب شيئًا من علوم

الشـــريعة قلَّ أو كثر، ولم يبـــق له إلا أن يســـافر إلى القاهرة؛ ليحظى بالتعلم في الجامع الأزهر على أيدي شيوخه الأجلاء وأساتذته الفضلاء، فهلا وهبته لله وشجعته على ذلك!

- السمع والطاعة يا سيدي، ولكن..

- لا مكان لـ(لكن) هذه، يا أم زكريا، اجعلي النية لله، والبقية من تساهيله وتيسيره، ارم حمولك عليه تعالى، وادعي له، وسييسر الله له كل عسير، فإن «طالب العلم مرزوق».

- توكلت على الله تعالى، لكن ما قول «الشيخ زكريا»؟

- زكريـــا محب راغب طامع، إنما يمنعه أن يقول شـــيئًا من هذا حياؤه من أن يتركك ويســـافر، لكني أطمئنه أنه في حين يسعى في هذا الطريق فهو في سبيل الله تعالى وأن الله سيخلفه فيك بخير، كما سيرعاه هو في سفره ويوفقه لكل خير، أم ماذا تقول يا زكريا؟!

أجاب زكريا بصوت خافت خاشـــع: القول ما يراه شـــيخي وما تقوله أمي!

- إذن توكلنـــا على اللـــه، نبدأ في الإعداد لهـــذه الرحلة الطيبة، وعليَّ أنا أن أرتب لهذا السفر مع بعض أحبابنا الذين يسافرون من «الشرقية» إلى «القاهرة» ليأخذوك معهم، والله الموفق!

***

بعد أيام قليلة جاء العم «ربيع» مبشرًا:

يا «زكريا»، يا أم زكريا!

خرج الاثنان على نداءات الشيخ «ربيع» مرحبين به يدعوانه لدخول البيت، لكنه قال: ما جئت الساعة لضيافة، إنما أردت أن أعرفكم بأني وجدت رحلة تتجهز للسفر إلى القاهرة وعلى زكريا أن يستعد فإنهم سيرحلون في الغد، مبكرين.. قال كلمته تلك وانصرف مستأذنًا في الذهاب لأجل حيواناته التي في الحقل تنتظره لأكل ورعاية ثم عودة للبيت.

تهللت أسارير الأم وابنها، وارتفعت أياديهم إلى الله تحمده وتشكره على تيسيره القريب، وهنأت الأم ولدها وشكرت العم ربيع ثم أقبلت تنتهز كل لحظة من أجل إعداد ملابس «زكريا» وطعامه، من بين مخزونات الزرع والحيوانات التي يحتفظون بها في الدار.

كانت الساعات تمر سريعًا، لكن الأم النشيطة التي تدفعها فرحتها بفتح الله لولدها كانت تسابق سرعة الساعات واستطاعت أن تجهز كل ما أرادت له في سفره.

في الموعد.. قبل الفجر بساعة جاء الشيخ «ربيع» وزوجه إلى بيت أم زكريا ونادى الشيخ ربيع فخرج زكريا واستقبلهما وخرجت من ورائه أمه فقال الشيخ ربيع: هيا يا زكريا لم يعد وراءنا وقت ولكي ندرك فسنصلي الفجر هناك في «أبو حماد» على اتفاقي مع القوم، اتجه زكريا إلى حاجاته يحملها وساعده العم ربيع في رفع بعضها عليه والبعض الآخر حمله هو.. وودع الرجلان المرأتين وانطلقا.

وهناك بعد صلاة الفجر التقيا برئيس الرحلة وعرفه العم «الشـــيخ ربيع» بزكريا، وأوصـــاه به خيرًا، وكان الرجل من الأدب والفضل والبرِّ بمكان فقد كانت كلماته تعبر عن ذلك كله وتنمُّ عن أصل أصيل اطمأن معه زكريا على رحلته واستبشر خيرًا.

استأذن العم ربيع الرئيس وانتحى بزكريا جانبًا وأسرَّ إليه:

يا زكريا إنك الآن تمضي في طريق النـــور والخير والفضل، فإن تتق الله تعالى فيها تكن لك نـــورًا وفتحًا وبركة، ويصير الله بها حياتك فرجًا بعد كربة وقوة بعد ضعف وسعة بعد ضيق، وإلا.. كان عكس ذلك تمامًا، فاعمل على رضا ربك يوفقك في نوال هدفك ويبلغك مقصودك!

اســـتمع «زكريا» للكلمات وهو مطأطئ رأســـه في أدب عهده عنه شـــيخه في حلقة الدرس ووعاه بقلب طالمـــا تيقن أنه لا يفلت العبارة ولا الإشارة، ثم عقب قائلًا في خضوع: حاضر، أفعل إن شاء الله مستعينًا بالله.

ابتســـم العم ربيع في رضا وغبطة ثم أخرج من جيبه كيسًا، ودسه في يـــد ربيع، وهو يقول: احتفظ بمالك جيـــدًا وأنفق على ضرورياتك قبل الحاجيات ولا تتطرق إلى غيرهما فإن طريقك طويل وزادنا وزادك قليل، ومتى يوسع الله علي فلا أبخل عليك بشيء أبدًا، ثم أوصاه بوصايا المعيشـــة هناك وما يســـتلزمه مقامه من ترتيب بين الدروس والحضور على الشـــيوخ واغتنام الأوقات.. كل ذلك وهو يجد من تلميذه الشاب كل إصغـــاء وموافقة.. أخيرًا ودعه وقال: هيا قد ارتحلت القافلة أو كأن قد، ولا تخش شـــيئًا طوال الطريق وإن عرض شيء فكلم الرجل فإنك

في أمان معــه فهو صديق قديم في حلقات العلم قد اســتفاد من العلم لتجارته فهو عالم في ثوب تاجر.

أخيرًا تصافح الاثنان وتعانقا وتوادعا، ثم انضم «زكريا» إلى جملة المسافرين، في القافلة التي حطت بهم ورحلت وأسرعت بهم وأبطأت حتى انتهى بهم المســير بعد أربعين ســاعة تقريبًا إلــى أبواب القاهرة العظيمة، وهنالــك ودع «زكريا» الرفقة وحمــل أمتعته وانطلق صوب مقصده: الأزهر.

***

اســتقر بزكريا المقام في الأزهر، واستقام له التردد على حلقات علمائــه، واصطفى من مجتهدي الحلقات خيــرة يأنس بهم بعد الفراغ من الدروس اليومية يتسامرون ويتناقشون في أمور العلم والعبادة، وقد وجدوا هم كذلك أنسهم معه فوق ما وجد هو، فأقبل في ظل ذلك على العلم في دأب واجتهاد وانهمك في الطلب والتحصيل.

كان وقــت زكريا كله للعلم إذ لم يكن له شــيء يشــغله، يقضي سحابة النهار يدور بين الحلقات، ويأوي في الليل إلى مكان مع رفاقه قد استأجروه للسكنى يقضي الوقت فيه بين المذاكرة والمطالعة والمناقشة وبين القيام وقراءة القرآن، مع قليل من النوم.

وقــد أكرمه اللــه تعالى بطلاب يتنافســون فيما بينهــم في العلم والعمــل، فلم يجد في نفســه معهم إلا الحافز والتشــجيع على الدأب والاجتهاد، ولم تخل تلك الليالي عن طرافة تنم عن جميل ما نشأوا عليه

من أخلاق وما نمـــا بينهم من ودٍّ ومحبة، كان من إخوانه هؤلاء شـــاب يدعى علي الأنصـــاري وكان يضرب به -كما يضرب بزكريا- المثل في شدة الورع والزهد والعفة والاجتهاد في العبادة وصيام النهار وقيام الليل بنصف القرآن في كل ليلة، وكان زكريا يعترف لعلي أنه يفوقه في الورع، وكان من طرائف عليٍّ أنه كان لا يشـــرب ماء حمله غيره، فيذهب بنفسه إلى مكان بعيد جدًّا عن السكن فيملأ إناء مائه الخاص ويشرب منه حتى يفرغ، وكان الشباب زملاؤه ومنهم زكريا يتقصدون هذا الإناء فيشربونه كله في الليل ويقولون: حتى ننظره ماذا يعمل معنا إذا عطش، فكان عليٌّ إذا انتهى من ورده في الليل جاء ليشرب فيجد الإناء فارغًا، فيبتسم راضيًا ويسكت لا يقول لهم شيئًا، وهذا من خير دليل على كرم أخلاقه.

هكذا مرَّت أيَّام زكريَّا لا تخلو من مرح خفيف بين طيَّات جدٍّ بالغ وســـعي دائب لبلوغ الهدف وتحصيل المقصد أنسى «زكريا» كل شيء حتى أنســـاه فقره وعيلته الذَين كانا لا يفارقانـــه لحظة، حتى يأتي عليه اليوم يبيت فيه طاويًا لا يجد ما يأكله فيخرج في ستر الليل إلى الميضأة التي يغسل فيها الناس حوائجهم بالنهار، فيلتقط قشور البطيخ فيغسلها ويأكلها.. وكم حدث مثل ذلك في أيام وليال، لكن ذلك لم يكن شـــيئًا إلى جوار لذة العلم وما وفق له من الصحبة الكريمة التي تشاركه العلم والعبادة والفقر والحاجة.

توطـــدت صلة زكريا بزملائه وأكثرهم في ذلـــك «عليٌّ» فكانا لا يتفارقـــان في ليل أو نهـــار في علم أو عبادة، حتـــى كان يوم جاءت فيه

والدة علي تـــزوره على عادتها في ذلك، تأتيـــه ببعض الطعام وتذهب بثيابه فتغســـلها وتعيدها إليه وكانت من أهـــل الفضل والخير، فأتته في هذه المرة وكان معها بعض الكعك يتقوت به، وأخذت قميصه تغسله له فوجـــدت فيه أثر الاحتلام فقالت له: يا ولدي إني أخاف عليك من أهل هذه البلد، فإن كنت في طاعتي فســـافر معي لأزوجك في بلدي وتقعد عندي، اســـتمع «عليّ» لأمِّه في أدب، ثم دخل فشـــاور صديقه الحميم «زكريا» في ذلك الأمر، فقال له الصديق الوفيِّ: استخر ربَّك، ففكَّر عليٌّ بعض الوقت ثم قال: لا والله، لا أســـتخير الله في طاعة والدتي، وكان «عليٌّ» بارًّا بوالدته وهي امرأة قويَّة خيِّرة من أصحاب العبادة والزهادة، ثـــم أقبل على «زكريا» يحدِّثه: تعلم يا زكريـــا! لقد مات أبي وأنا صغير فما رباني إلا أمي، فكنت أرعى للناس بهائم بالأجر وأتقوَّت، وحفظت القـــرآن وأنا أرعى البهائم، فكنت أكتب لوحي وآخذه في الغيط فمر بي بعض الفضلاء فقال لي: اســـمع منِّي، شـــاوِر والدتك وسافر إلى مصر تعلم بها العلم، فشاورت أمي فسمحت لي بذلك وزوَّدتني زوَّادة آكلها في نحو أربعة أشهر، فلم يضبط أحد عني ساعة فراغ منذ أتيت إلى هنا، برًّا بها ورفقًـــا بحالها، فصارت تفتقدني إلـــى أن رجعت إليها، أفتراني أســـتخير فتحتمل اســـتخارتي أن أجيبها أو أردَّها؟! لا والله، لا أكون مطيعًا لها بارًّا بها حتى أفعل ما تأمرني به.

سافر عليٌّ مع أمه إلى البلد وتأثر زكريَّا تأثُّرًا شديدًا بغيابه وافتقده، كان يتلمَّس أخباره بين الحين والحين، فعلم أنه هناك في القرية، قد زوَّجته

أمُّه واستقرَّ به المقام في بلده ولم يعد إلى القاهرة أو الأزهر بل كان يعلِّم الفلَّاحين في قريته القرآن والعلم، وكان «عليٌّ» إذا سافر إلى القاهرة بعد ذلك يزور الأزهر ليستروح روائح أيامه المجيدة، ويزور زكريا ومن بقي من الطلاب هناك، ويأنس بهم بعض الوقت، وكان من حديثه يومًا أن قال لزكريا: «قطعتني أمِّي وأنا أخضر، لكن ما كان لي من طاعتها بدٌّ».

أمَّا زكريا فأقبل على العلم بعد رفيقه يشغله العلم عن التأثُّر المضرِّ بفقده ووجد في العلم سلواه وفيمن بقي من إخوانه الطلاب الباقين، ولم يلبث غير قليل حتى ذاع صيته وعلا ذكره في حلقات العلم عند شيوخه وإخوانه فدرج في مراحل التعلم حتى أجازه مشـــايخه، وكتب له بذلك كثير منهم شهادات وإجازات مع الإطناب في المدح والثناء، وكثر عليه الخير حتى صب عليه صبًّا وطاب، للدرجة التي جمع فيها دفتر إجازات شيوخه بعد ذلك بسنين معدودة عددًا ضخمًا من العلماء كلهم قد أجازه في فنه، ومنهم من طبقت شـــهرته الآفاق حتى بلغت الأرض بأســـرها، وقد أذن له في إقراء «بعض من مصنفات شـــيوخه» والاشـــتغال بها في حياتهم، يقرؤها على صغار الطلاب ويدرِّسها لهم فأكرمه الله بالتصدّي للتدريس في حياة غير واحد من شيوخه.

وكان هذا دَيدنُه، في دراسة وتدريس، وبين تعلم وتعليم، ويختطف من بين ذلك كله أيامًا قليلة ينزل إلى «سُـــنَيْكة» ليـــزور أمه والعم ربيع وأســـرته، وكانوا على العهد معه، وكان بره ودعاؤه وعرفانه لهم بالخير موصـــولًا.. وفي إحدى هذه المرات التي عاد فيها من البلد أســـند إليه

التدريس في بعض المدارس حول الأزهـــر وانهمك في القيام بالعمل الذي أوكل إليه فطالت مدة إقامته وغـــاب فترة عن عادته في زيارة أمِّه حتى اشتدَّ حنينه إليها ووجد في قلبه لها شوقًا عظيمًا، فقرَّر الذهاب إلى القريـــة في أوَّل جمعة تأتي بعد يومه، وبينما هو في الحلقة يومًا إذ جاءه بعض إخوانه فهمس إليه ببعض الكلمات، فاستأذن من شيخه وقام، فإذا صاحبه يشير إلى شـــخص يقف بعيدًا فذهب إليه «زكريًّا» وكان الرجل من تجَّار الشـــرقية الذين ينزلون القاهرة في حوائجهم باستمرار، وكان يحمل له رســـالة من «العم ربيع» تفيده أن والدته قد توفيت منذ يومين ودفنت وأنها رَحِمَهَا اللَّهُ قد أوصته بالاســـتمرار في العلـــم والاجتهاد في العمل، وفي نهاية الرسالة عزَّاه «العم ربيع» ودعاه إلى النزول حتى ينظر في شئونه بعد أمِّه ماذا سيفعل؟

***

في يـــوم الجمعة انطلق زكريَّـــا إلى القرية بعدمـــا رتب أموره في القاهرة، وما إن وصل إلـــى القرية وكان في أول النهار حتى بدأ بالمقابر فـــزار والدته وصلـــى عليها ثم زار والـــده وبقي هناك يدعـــو لهما فترة طويلـــة، وكان أهل القرية قـــد رأوه وأخبروا «العم ربيـــع» بوجهته نحو المقابر فذهب يلتمســـه فوجده عند قبر أبيه، قد جلـــس باكيًا رافعًا يديه يدعو، فانتظر إلى جواره وأحس به «زكريا» فلما قضى دعاءه التفت إليه فاحتضنه «العم ربيع» وواساه في فقد والدته ثم اصطحبه إلى بيته وهناك تناولا طعام الفطور، وتداولا الكلام، وفوجئ الشـــيخ ربيع بزكريا ينتهي

إلى قرار غريب للغاية، لقد قــرر أن لا يعود إلى القاهرة مرة أخرى وأن يبقى في القرية، كان الأمر مفاجئًا ومحزنًا للشيخ ربيع للغاية لكنه حمل الكلام بمحمل وقته وحاله ولم يشأ أن يناقش «زكريا» في ذلك القرار بل أجله إلى وقت يكون أنسب وتكون غمامة الحزن قد انقشعت عن قلبه.

نهض زكريا يســتأذن للذهاب للراحة بعض الوقت في بيته فعرفه العم ربيع بأنه نقل «حيواناتهم» إلى بيته من يوم وفاة والدته وأغلق الدار وكانت زوجه قد ذهبت إلى هناك خلال اليومين الماضيين فقامت على تنظيف البيت تحسبًا لمجيئه فيجده نظيفًا.

لمعت عينا «زكريا» بالشكر والمتنان لهذين الزوجين الكريمين، وبادرت الكلمات تخرج من فمه عطرة شــاكرة جميلهما، فقاطعه العم ربيــع وقال: نحن أهل يا زكريا، اذهب الســاعة فنــم ونلتقي في صلاة الظهر بمشيئة الله تعالى.

في الصــلاة اجتمع الناس على «زكريا» يعزونه ويواســونه، وبعد العصر أتت وفود أهل القريــة وما حولها إلى بيته ومضت ثلاثة أيام وهو علــى هذه الحال، لا يكاد يفرغ من المعزيــن إلا وقت الصلوات ووقت النوم في آخر الليل.. حتى خفَّت الأقدام فــي اليوم الرابع وانقطعت في اليوم الخامس وبقي «زكريا» على حاله بين البيت والمســجد، فلما رأى الشيخ ربيع حاله جمع أصدقاءه الأقدمين وأهل الرغبة في العلم وطلبوا من الشــيخ «زكريا» أن يشرح لهم بعض كتب شــيخه شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني وصار مجلســهم ينعقد كلَّ يوم، وكانت تلك حيلة من

«الشيخ ربيع» ليخرج زكريا بها من حزنه وقد كان ما توقعه، مما تيسَّر معه بعد أيام أن يفاتحه في أمر السفر، وقد لقي من «زكريا» إعراضًا عن الفكرة لكنه كان دون إعراضه الأول فشجعه ذلك على المحاولة معه مرات حتى لان له «زكريا» وأذعن وفي النهاية جلسوا يرتبون الأوراق، وكيف تسير الشئون هنا وهناك، اقترح العم ربيع على «زكريا» أن يترك الحيوانات لدى بعض الفلاحين الأمناء على أن تكون له ألبانها ونصف نتاجها في مقابل طعامها ورعايتها وأن يؤجر الأرض لهذا الفلاح أو غيره ثم يُجمع حاصل هذا وهذا كل عام مثلًا فيأتي زكريا من القاهرة للزيارة لأخذه وينفق منها على مشواره، ثم قال: هذا يا «زكريا» خير لك الآن؛ أن تدَّخرهما، فإذا مضى بك بعض الوقت احتجت إلى زوجة ومسكن في القاهرة فبعت ما هنا واشتريت هناك وأنفقت الباقي على زواجك ومقصدك.

وافق «زكريا» شيخه في جميع ما قال، وتوجه إلى الله تعالى بالشكر على ما منحه من النعم، فلئن أخذ منه أبوين فقد عوضه منهما آخرين، وفاضت كلمات الثناء منه على الشيخ وزوجه، فقال الشيخ ربيع وهو يبتسم: طالما ذكرتها فهي الآن تنتظرنا على الغداء وقد كانت تدعو الله تعالى أن أوفق في الكلام معك وأصل إلى انتزاع القبول منك لتسرع بالسفر إلى القاهرة لتدرك دروسك فالأيام تتصرَّم سريعًا من بين يديك، ثم نهضا إلى البيت وهناك تناولا الغداء وسعدت زوج الشيخ ربيع لما علمت بقراره وبدأت على الفور بتجهيز زوادة السفر لولدها «زكريا» إلى القاهرة.

قضى «زكريا» و «العم ربيع» بقية يومهما في ترتيب الشـئون التي اتفقا عليها، وقد تم لها الأمر كله على أفضل ما ابتغياه.

وفي الصباح ارتحل زكريـا إلى القاهرة من جديد، وهو يفكر في مستقبل أيامه دون السـند الذي كان يلجئ إليه ظهره على البعد، ودون الرفيق الذي كان يؤنسه في الغربة، لكنه بعد تفكير حمد الله تعالى على أن ألهمه العودة إلى حلقات العلم في القاهرة لدى شـيوخه ففيها أعظم السـلوى عن كل ذلك، ترى لو كان انقطع عـن القاهرة إلى أي وضع كانت حاله ستؤول؟

***

وصـل «زكريا» إلى القاهرة وواصل مـا كان فيه من جدٍّ واجتهاد في العلم، لكن سعيه هذه المرة كان في همة ودأب مضاعفَين عن المرة السـابقة، لقد كَانَ في النهاية من الانهماك في طلـب العِلْم، لا يجعل لنفسه متنفسًا سواه، حَتَّى أشغله عَنْ مأكله ومشربه.. ولم يعرف عنه أنه عكف عَلى الاشتغال بشـيء من أمور الدنيا وَمع هذا كله لَمْ يعلق قلبه بأحد من الخلق، فهل كان «زكريا» يعزم على تحقيق أمنية والدته سريعًا برًّا بها رَحِمَهَا اللَّهُ وتعويضًا لنفسه عما فاته من الصحبة لها؟! لعل ذلك كان في نيته، ولأجل هذا قد أصبح في وقت قصير بعد رجوعه من المؤهلين للانضمام إلى ركب العُلَمَاء، فشـقَّ طريقه إلى التدريس برعاية شيوخه الذين أحبوه وقدموه لما عرفوه فيه من مؤهلات ترفعه إلى تلك المكانة وتعده لما فوقها، لا سـيما وهو مضرب المثـل بينهم -كما هو كذلك

بيـــن إخوانه الطلاب- في حســـن الخلق، والتحلـــي بمكارم الأخلاق وفضائلهـــا، لا يدع بابًا إليهـــا إلَّا دخله، فاجتمعت لـــه بذلك ثلاثة من المعالي قل أن تجتمع إلا في مبرّز:

- جمع من أنواع العلوم والمعارف القدر الكبير بإتقان.
- حوى مكارم الأخلاق وحسن السمت والتؤدة في طبع لا تطبع.
- أخذ عَنْ أكابـــر العلماء وجمع عنهم مَا لَمْ يجمعه غيره ويكفي أن نعلم أن شيوخه كانوا زيادة على (١٥٠) شيخًا.

وكمـــا كتب اللـــه تَعَالَى للحبيـــب «زكريا» القبول بَيْـــن العلماء والشيوخ كتب له القبول بين الناس والتلاميذ، فأقبل عليه الناس من كل مكان يتعلمون على يديه ويقرؤون العلوم عليه.

يقول الراوي: اســـتمرت الأيام بالشيخ زكريا يسعى فيها وتسعى بـــه حتى بلغ أرفع مكانة يصـــل إليها عالم في مصر المحروســـة لا في القاهرة فحســـب، فقعد للتدريس في مســـجد الإمام الشافعي، وجلس في مجلس القضاء ثمَّ صار وزيرًا للعدل، وكان رأس الشافعية في زمانه ومفتي مصـــر على مذهبه، وقصده الطلاب من أقاصي الأرض بالرحلة من الحجاز والشام وما وراءهما، إذ كان بارعًا في سائر العلوم الشرعية وآلاتها حديثًا وتفســـيرًا وفقهًا وأصولًا وعربية وأدبًـــا ومعقولًا.. وقد وظَّف الْقَاضِي زكريـــا الأنصاري معرفته العلمية في التأليف إِلَى جانب التدريس، وخلال عمره الذي عاشه استطاع أن يترك لنا جملة كبيرة من المصنفات في جميـــع الفنون من اللغة إِلَى المنطـــق، ومن الكلام إِلَى

الْحَدِيْـث، ومن الفقه إِلَى القراءات، ومن التصوف إِلَى التفسـير، ومن أصول الفقه إِلَى الفرائض.

وفي الناحية العائلية: تزوَّج وصار لـه أولاد وأحفاد، وأقبلت الدنيا عليه إقبالًا عظيمًا، فصرفها في الفقراء والمحاويج ومن مثله قاسـى مرارة الحرمان وعاش مصاعبها؛ فلهذا كَانَ يعرف لوعة المحرومين وضيق ذات يد المعدمين، فكان كَثِير البرِّ بطلبته وتفقد أحوالهم وكذا الفقراء من العامة.

وقد عاش «العم ربيع» وزوجه حتى رأيا مَا حازه ربيبهما ومكفولهما «زكريـا» من المجد والفخـار، وزاراه في القاهرة مـرارًا فكان يبالغ في إكرامهما وتوقيرهما ويذكرهم بالفضل والعرفـان أمام من يكون عنده، وربما مازحته زوجة الشَّيْخ ربيع التي ربَّتْهُ فيتلطف معها ويجلها ويقدرها ويبالـغ في توقيرها، وكذلك كان يكرم كل مـن يزوره من قريته ويقضي حوائجهم.. وتلك والله من دلائل أصله الكريم وانتفاعه بما تعلمه.

***

حدثت هذه القصة في الفترة بين عامَي (٨٢٣ هـ و ٩٢٦ هـ)، في قرية سُـنَيكة، بمركز أبي حمّاد من قرى محافظة الشرقية، بمصر.. وبلغ عمر الشيخ زكريا (١٠٠) عام.. رحم الله كل من ورد اسمه فيها وبلغهم المنازل العالية في جنة الفردوس بصحبة خير النبيين ﷺ[1].

(١) راجع في سـيرة الشـيخ زكريا الأنصاري: الضوء اللامع ٣/ ٢٣٤، والنور السافر: ١١٢، وشذرات الذهب ٨/ ١٣٤، والبدر الطالع ١/ ٢٥٢، وتاج العروس ٧/ ١٤٥، ومعجم المؤلفين ٤/ ١٨٢، والكواكب السائرة ١/ ١٩٦، والأعلام ٣/ ٤٦.



ما أعجَبَ المقاديرَ! تلك التي تسوق الهدايةَ إلى رجل مِن دون الناس أجمعين، تتعرَّض له في أبهى وأجمل صورة، فلا يمضي غيرُ قليل من الزمن حتى يكون من أهلها، والمتمتِّعين بها.

وتَحرِم منها آخرين عُرضت عليهم في صورٍ شتى، مرارًا وتكرارًا، ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، فلا يزدادون منها مع مرور الأوقات إلا بُعدًا.

كان النبي ﷺ في أهل مكة، وُلد بينهم وشهِدوا صباه وشبابه، فما عرَفوا منه إلا خيرًا، وما جرَّبوا عليه إلا كلَّ جميل، فلمَّا نُبِّئ ودعاهم إلى ما نُبئ به يرجو لهم النجاة والخلاص والخير بكلِّ إخلاص، رفضوا دعوته، وعادَوه كأشد ما يكون العداء!

وحين فكَّر ﷺ في الخروج إلى أرضٍ جديدة يُجري بها ماءَ الدعوة؛ لعلها تجود بالخير الذي بخِلت به أرضُ مكة، اختار الطائف؛ لعلها تكون المكان الذي يُسمَع فيه صوت الحق، ويعينه أبناؤه على أعدائه، ولماذا الطائف؟ إننا نجزِم بأنه لم يكن اختيارًا عشوائيًّا؛ فكل حركة قام بها النبي ﷺ كانت مسبَّبة ومدروسة، والطائف هي - بعد مكة - أعظمُ قرية في العرب من حيث المساحة والسكان، والتجارة، والمكانة الدينية والقبلية، إلى أسباب أخرى كثيرة.

كان خـــروج النبي ﷺ للدعوةِ في الطائـــف إذًا خروجًا هادفًا إلى قريب مـــن أهداف الدعوة في مكـــة، لكن أهل الطائـــف قابَلوا دعوته بســـخرية وتهكُّم وعناد، بل زادوا في الاعتداء النفسي والبدني عليه بما لم يفعل أهلُ مكة إطلاقًا.

وحرَمَت مقادير الله أهلَ الطائف من الهداية كما حرَمت منها أهل مكة من قبل!

وعاد النبي ﷺ يشـــقُّ طريق العودة شـــقًّا، ويحمل كربه وهمومه من جرَّاء أثقال الاعتداء الذي جرى عليه في الطائف، وخشية الاعتداء الذي ينتظره في مكة حين يعلم أهلُها بما حدث له مع ثَقِيف.

زِدْ على ذلك الوعورة الطبيعية للطريق، وهو وإن قطعه ذهابًا إلى الطائف مشـــيًا على قدميه، فإنه لم يكن يُحِسُّ لوعورتـــه هذه أثرًا؛ لما كانت أحلامه وآماله تحمله خلال مسيره، لكنه الآن يحمله وقد ارتدَّت الأمال وغابت الأحلام!..

ولهذا كله كان التعبير النبويُّ يحمل أســـى ومرارة تظهرها كلماته ﷺ عن هذه الرحلة، ومنها قولـــه: «**فانطلقتُ وأنا مهموم على وجهي، فلم أستَفِقْ إلا وأنا بقرن الثعالب**»[1]، يا لها من أثناء عصيبة!

لم تُصِـــب الهدايةُ أهلَ القريتين العظيمتيـــن، لكنها أصابت عبدًا مغمورًا، كان يخدم في بستانٍ بالمكان الذي ألجئ إليه النبيُّ ﷺ يحتمي

(١) رواه مسلم (١٧٩٥).

فيه من سفهاء الطائف وصبيانهم الذين أغراهم به ساداتُهم، فاجتمعوا عليه ﷺ يُؤذونه بالحجارة.

كان ذلكم المكان حائطًا لعُتْبة بن ربيعة وشَيْبة بن ربيعة، فلما دخله النبي ﷺ، عمَد إلى ظل حبلة من عنب، فجلس فيه، وكان ابنا ربيعةَ ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف، فتحرَّكت له رحمُهما، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًّا، يقال له: عدَّاس، فقالا له: خُذْ قطفًا من هذا العنب، فضَعْه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقُلْ له يأكل منه.

ففعل عداس، ثم أقبَل به حتى وضعه بين يدَي رسول الله ﷺ، ثم قال له: كُلْ، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده، قال: «**بسم الله**»، ثم أكل[1].

هذه هي اللحظة التي أسفرت فيها الهدايةُ عن وجهها المضيء، فبدت أنوارها، ما إن سمع عداس كلمة «بسم الله» حتى نظر في وجهه ﷺ كأنه يستجليه شيئًا، ويستنبئه حقيقةً، ثم قال: «والله، إن هذا الكلام ما يقوله أهلُ هذه البلاد!».

وألمح أن عداسًا قدَّم الفعل وأخَّر القول؛ ليتعرَّف بنبأ الفعل على صدق القول وسلامته من الكذب، لقد نظَر في الوجه الأنور الأنضر يتلمَّس أَمارات وأدلة تُنبئه عن صدق الجواب الذي سيجيب به صاحبه

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٦٦).

عن ســؤاله: (والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد)، فلما جاءه قول رســول الله ﷺ: «**ومِن أهل أيِّ البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟**»، لم يتردد في الجواب وقال: نصراني، وأنــا رجل من أهل نِينَوَى؛ فقال رســول الله ﷺ: «**مِن قرية الرجل الصالح يُونُس بــن متَّى؟**»، فقال له عداس: وما يُدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك أخي، كان نبيًّا وأنا نبي**»[1]، فأكَبَّ عدَّاس على رسول الله ﷺ يُقبِّل رأسه ويدَيْه وقدمَيْه، وقال للنبي ﷺ: أشهدُ أنك عبد الله ورسوله[2].

لقد أتى الهدى إلى عداسٍ حيث هو في مكانه، لم يَسْعَ إليه، وكأن النبي ﷺ قد أُلجئ إلى هذا الحائط دون غيره حتى يُســلِم عدَّاس، حين أبى جميعُ الناس.

تُرى ما كان عمل ذلك الإنسان ونيَّته حتى يريد الله له ذلك؟

لكأنما كانت خطواته من بلاد الرافدينِ إلى جزيرة العرب شــفيعًا له ألا يخطو خطوة بعدها، وأن يسعى الهدى بنفسه إليه، أو لعله رَحِمَهُ ٱللَّهُ سعى إلى الهُدى من أرض العراق إلى الجزيرة، وتقابَلَا في هذا الوقت وفي هذا المكان!

فقد ذكر غير واحد من أهل السِّــير ما يستأنس معه إلى أن عداسًا

---

(١) ســيرة ابن هشــام (٢/ ٢٦٦)، والطبقات الكبرى (١/ ٢١٠-٢١٢)؛ لابن سعد، والأنوار المحمدية من المواهب اللدنية (٤٩-٥١)؛ للنبهاني.

(٢) انظر: الإصابــة في تمييــز الصحابة (٤/ ٤٦٧)، والســيرة النبويــة الصحيحة (١/ ١٨٥)؛ لأكرم ضياء العمري.

كان على علـــم بالكتاب الأول، وأنه كان ينتظر ظهور النبي الخاتم ﷺ، كما كان يفعل وَرَقة بن نوفل، وقُسُّ بن ساعدة الإيادي، وإخوانُهما من الحنفاء.

ويذكر بعض أهل السِّـــير أن خديجة استشـــارت عدَّاسًـــا في أمر المَلَـــك الذي رآه النبي ﷺ في غار حراء أول مـــرة، أتاه فيها ففزِع، كما استشارت ورقة، وأن عداسًا قال لها: إن جبرائيل رسولُ الله وأمينه إلى الرســـل، وفي بعض الروايات أنه قال: هو أمين اللـــه بينه وبين النبيِّين، وصاحب موسى وعيسى[1].

وعدَّاس - قبل ذلك - عبدٌ أو خادم في البستان، وبإذن سيِّدَيْه جاء بقطفِ العنب فوضعه بين يدي رسول الله ﷺ، وكان سيِّداه هذان يرقبانه من بعيد ذهابًا وإيابًا، ويريان ما يفعل مع النبي ﷺ، وبينما كان النبي ﷺ وعداس يتحاوَران، كان حديث من نوع آخر يدور بين هذين الســـيِّدين، يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك، فقد أفسَده عليك.

إنها الهداية ثانية وثالثة، وعـــدد حبَّات رمال الصحراء تلوح أمام الأعين وتقـــدِّم براهينها، فيقبلها مَن يقبلها ويُعـــرِض عنها مَن يعرض، وللمقاديـــر مع الهداية نبأٌ آخر عجيب، يقبَلهـــا عدَّاس العبد أو الخادم، ويُعرِض عنها شـــيبة وعتبة ابنا ربيعة الســـيدان الكبيران، وأنصِتْ بأُذُنِ قلبك إلى الحوار الذي دار بين المقبِلين والمعرِضين كليهما لَمَّا جاءهما عدَّاس:

---

(١) الإصابة (٤/ ٤٦٧).

- قالا له: ويلك يا عدَّاس! مـــا لك تُقبِّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟

- قال: يا ســـيدي، ما في الأرض شيء خير مِن هذا، لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلا نبيٌّ.

أوَ يســـأل ابنا ربيعة عداسًـــا عن هذا الأمر؟! كلَّا، بل أعرَضا عن ذلـــك، واكتفيا نحوه بالقول المارق: ويحك يا عداسُ! لا يصرفنَّك عن دينك؛ فإن دينك خيرٌ مِن دينه[1].

هكذا بلا دليل ولا تمحيص ولا برهان!

كأنما على الخادم أن يســـمع كلام السيدين، وأن يقبل حُكمهما، ولا يُعمِـــل عقله فيما يقولان لـــه من كلام، أو يطلـــب البرهان على ما يُصدرانه من أحكام!

أهو الصَّلَف، وبه حُرما الإقبال على الهداية ورؤية وجهها البادي كوجه الشمس؟ ربما.

أو هي دلائـــل الإيمان حيـــن يقبَله الضعفاء علـــى فداحةِ الثمن وضراوة الأذى، ويُعرِض عنه الموســـرون والأشراف مع العصمة عن الأذى؟ لعلَّ هذه أقرب.

إننا لا نعرف مِن نسب عدَّاس إلا اسمه هذا، وغاية ما نقول: «عداس النِّينَوي»، فننســـبه إلى بلده التي انتســـب إليها بين يدي رسول الله ﷺ،

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٦٦).

ولو شئنا لذكرنا لابني ربيعة هذين من نسبهما عشرة أسماء وعشرين، فهل ضرَّه أو نفَعَهما؟

فالحمد لله الذي جعل النسب عنده بالتقوى، وإن أبى الناس إلا قول: فلان بن فلان.

تصمُتُ الروايةُ الإسلامية عن ذكر عداس من وقت هذا الحدث، ثم تعود إلى ذكرِه بعده بنحو من أربع سنوات، لما كانت غزوة بدر.

هل هاجر عداسٌ مع النبي ﷺ إلى المدينة؟ أو منعه الرقُّ من الهجرة؟

لعل الأقرب إلى الصواب هو الثاني، فقد ذكر الواقدي في قصة بدر عن حكيم بن حزام أن عداسًا كان جالسًا على الثنية البيضاء والناس يمرُّون عليها، فلما رأى شيبة وعتبة ابني ربيعة خرَجا إلى ساحة الحرب، وثب فأخذ بأرجلهما يقول: بأبي وأمي أنتما، والله إنه لرسولُ الله، وما تُساقان إلا إلى مصارعكما[1].

لقد كان به أملٌ أن يصدِّق سيِّداه بالنبي ﷺ، ولم يُخيِّب أملَه في إسلامهما قولُهما الذي قالاه قبل ذلك، كما لم يَثنِه عملهما هذا، فحين لم يجد منهما أذنًا مُصغِية، جلس يبكي وهو يتحسَّر على موقفهما، وما عساه أن يؤول إليه أمرهما، ومرَّ به - وهو في هذه الأثناء - العاص ابن شيبة، فوجده يبكي، فقال: ما لك؟ فقال: يُبكيني سيداي وسيدا هذا الوادي، فيخرُجان ويُقاتلان رسول الله ﷺ، فقال له العاص: إنه

(١) الإصابة (٤/ ٤٦٧).

لرســـول الله؟! فانتفض عداس انتفاضةً شـــديدة واقشعر جلده وبكى، وقال: إي والله، إنه لرسول الله إلى الناس كافة[1].

وهذا الموقف يكشف عن خصلتينِ كريمتينِ في عداس، كلتاهما أعـــز في الناس من الأخرى، فهو الرجل المســـلم الحريص على هداية الناس، وخاصة ســـيديه اللذين آوياه وأطعَمـــاه، ولو بحقِّ خدمته لهما، وملكهما لرقبته، لكنهمـــا على كلِّ حال صاحبا اللقمـــة التي يَطعَمُها، والمكانِ الذي يؤيه.

وهو رجل مســـلم مستمسك بإســـلامه لا يَهاب في سبيله شيئًا، ويصرِّح بما يعتقد، ففي هذا الوقت العصيب والحربُ دائرةٌ بين قريش والنبي ﷺ، لا يخشـــى أن يجاهر بأحقيته في الرســـالة، وامتلاكه للحق في الدعوى التي ينازعانه إياها، يقول هذا لسيدَيْه ويقوله لغيرهما، دون خوف أو وجَل، بل دون مداراة أو مواربة.

ولعلنا نجد في هذا الســـياق الأخير ما يُفسِّـــر لنـــا نجاته من أذى سيديه؛ إذ آمن بالنبي ﷺ في مكة، وقد كان العبيد سواه يؤمنون فيؤذَون أشدَّ الإيذاء، فهو يوضِّح لنا أن الرجل على مكانه في الخدمة كان معروفًا مشـــهورًا بتديُّنه وعلمه، حتى إن خديجة أتَتْه فســـألَتْه عن رســـول الله والنامـــوس الذي أتاه كما أســـلفنا، ولعـــلَّ ذلك أيضًا يُفسِّـــر لنا بعض أسباب إعراض سيدَيْه عن مناقشته في كلامه؛ لئلا يحرجا نفسيهما معه بجهلهما، أو يلزمهما الإقرارُ بدعواه.

---

(١) الإصابة (٤/ ٤٦٧).

ويمضي الواقدي في ذكر خبر عـــداس، فيُورِد احتمالًا بأنَّ وقفتَه في وجه سيديه ليَحولَ بينهما وبين الموت مشركينِ في الحرب - كانت في مكة ولم تكن ببدر، وأنه لَمَّا لم يســمعا قولَه ذهب معهما إلى هناك، وهـــل قُتل هناك أو عاد، ثم يورد ما يفيـــد أنه لم يُقتل ببدر، بل رجع إلى مكة ومات بها[1].

ونرجح أنه كان من المســتضعَفين من الرجال والنساء والوِلدان، الذين عفا الله عنهم في عدم الهجرة وبقائهم بمكة؛ لأنهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون ســبيلًا، فأولئك عســى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوًّا غفورًا[2].

وفي العصر الحديث بنى بعضُ المسلمين عند بستان الطائف هذا، وفي مكان استراحة النبي ﷺ - حســب توقعاتهم - مسجدًا، وأسموه مسجد عدَّاس؛ إشــارة منهم إلى حبِّ هذا الغلام الصحابي رضي الله عنه وأرضاه، وجمعنا به في الجنة في رفقة خير خلق الله ﷺ[3].

وتبقى في قصة عداس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فوائدُ عظيمة؛ منها:

- أن بعض الناس يُغني عن كثير منهم، فرُبَّ رجل باثنين أو بعشرة أو بمائة أو بألف، وربَّ رجــل بأمَّة كاملة، والعبرة في الكيف لا الكم.

---

(١) الإصابة (٤/ ٤٦٧).

(٢) انظر شــيئًا من خبرهم في تفســير الآية رقم (٩٩) من ســورة النساء في تفسير الحافظ ابن كثير (٢/ ٣٨٨).

(٣) انظر: في منزل الوحي (٢٧٧) للدكتور محمد حسنين هيكل.

- فضل بصيصِ النور يأتي في ظلمة وحلكة شديدتينِ، فقد كان في إسلام عداس ترطيبٌ لقلب حبيبه ﷺ؛ حيث جاء في ظرف صعب.

وغير ذلك من الفوائد.

نســأل الله تعالى التوفيق إلى كمال الأســوة بالرعيل الأول مِن الصحب الكرام، وبمن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.





ملكة تاجها السموّ بالحقّ

يـا أيّها الكتـاب والمؤلفون، ما الشـجاعة؟ ويا أيّهـا العارفون والواصفون، كيف وجدتم الشـجعان؟ اجمعوا خير وصف لها، وكذا أفضل من بها وصف، ثم اسمعوا إلى هذا الموقف وأجمعوا أمركم أين تضعون صاحبته في تلك الدرجات؟

نعم صاحبته، وليس صاحبه، إنها امرأة، لكنّها ليست ككلّ النساء، إنها من نساء العقيدة الإسلاميّة، ونسـاء العقيدة الإسلاميّة شيء آخر، إنّهـنّ يتفوّقن في مواقفهنّ في الحقّ على كثيـر من الرّجال، حتى يكنّ أولى نوعهنّ بقول المادح:

ولـوْ كانَ النّسـاءُ كمَـنْ فَقَدْنـا

لفُضّلَتِ النّسـاءُ على الرّجالِ

وما التأنيثُ لاسـمِ الشّمسِ عَيبٌ

ولا التّذكيـرُ فَخْـرٌ للهِـلالِ

ونسـاء العقيدة الأوائل من الصحابيـات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ خير من يمثّل الوصف المتقدّم، فمـن أولى بذلك منهنّ وقد رأين رسـول الله ﷺ، وسمعنه، وبايعنه، وهنّ القدوات والأسوات لمن جاء بعدهنّ.

ومن هؤلاء القدوات ذات النطاقين، أسماء بنت أبي بكر الصدّيق -رضـــي الله عنها وعن آل بيتها المؤمنيـــن الأطهار- فقد ضربت أمثلة للشـــجاعة في الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ستبقى أبد الدهر نموذجًا يحتذى[1].

ومن ذلـــك موقفها من الحجّاج ذلك الظلوم الغشـــوم، عدوّ ابنها وعـــدوّ المؤمنين، فقد روى الإمام مســـلم[2] أنه لما بلـــغ الحجّاج ابن يوسف أنّ عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقف عند جثمان عبد الله ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأثنى عليه، أرســـل الحجّاج إلى الجثمـــان فأنزل عن جذعه -وكان قد صلبه على الجذع- فألقي في قبور اليهود.

ثم أرســـل الحجاج إلى أمّه أســـماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لتأتيه، فأبت أن تأتيه، فأعاد عليها الرســـول يبلغها: لتأتيني أو لأبعثن إليك من يســـحبك بقرونك، فأبت، وقالت: والله لا آتيك حتـــى تبعث إليّ من يسحبني بقروني.

فقال: أروني ســـبتيتيَّ، فأخذ نعليه وانطلق يسرع، ثم انطلق حتى دخل عليها، فقال: كيف رأيتني صنعت بعدوِّ الله؟

قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك، بلغني أنك

---

(١) اقرأ في «أمهات مؤمنات غيّرن وجه العالم»، للمؤلف؛ دور أســـماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في تنشئة أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير عالمًا وعاملًا وقائدًا، صدر - بحمد الله - عن دار المازري بتونس.

(٢) الحديث أخرجه مسلم (٢٥٤٥)، وقد سقته هنا بمعناه.

تقول له: يا ابن ذات النطاقين، أنا والله ذات النطاقين، أمّا أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول الله ﷺ وطعام أبي بكر من الدوابّ، وأما الآخر فنطاق المرأة الذي لا تستغني عنه، أما إنّ رسول الله ﷺ حدّثنا أنّ في ثقيف كذّابًا ومبيرًا، فأمّا الكذّاب فرأيناه، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه.

قال: فقام عنها ولم يراجعها.

سبحان الله، أو يفعل المنصب والكرسيّ بالمرء كلّ هذا؟ يجعله يحارب أخاه، ويضيّق عليه حتى لا يجد الطعام، ثمّ يحصره في حرم الله، ويستحلّ لأجل الظفر به كلّ محرّمة حتى رمي الكعبة بالمدافع إلى أن تهدّمت، وإذ ظفر به لم يكتف بقتله حتى صلبه، وبعد صلبه يأتي أمّه - المكلومة الثكلى - فيعيّرها غافلًا عن أولى آداب المروءة وبدهيات صفات الرّجولة!

أوَ يفعل المنصب كلّ هذا بالإنسان فيجرّده من إنسانيته، وربما من دينه؟ اللهمّ رحماك!

أين غابت العقول إذ خفت الإيمان وضعف وذبل؟ وأين ذهبت الشهامة والنخوة إذ ولّت أخوّة الإيمان ورحم الإسلام؟

بلى والله، إنّ المنصب لا يدع عقلًا ولا عاقلًا روى الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تاريخه عن إبراهيم بن هشام بن يحيى القباني، عن أبيه عن جده قال: كان عبد الملك بن مروان يجلس في حلقة أمّ الدرداء في مؤخّر المسجد بدمشق، فقالت له: بلغني أنك شربت الطلا -الخمر-

بعد العبادة والنسك، فقال: إي والله، والدّما أيضًا قد شربتها[1].

وقد كان حال الحجّاج -أمير عبد الملك على الحجاز- كحال سيّده، شرب من دماء خيار المسلمين حتى شبع، وما خبر قتله عبد الله بن عمر[2]، وعبد الله بن الزبير -وهما من الصحابة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص -وهما من التابعين-، ببعيد، وغير هؤلاء كثير حتى قال هشام بن حسان: أحصوا ما قتل الحجاج صبرًا فبلغ مائة وعشرين ألف قتيل!

فيا ضيعة الدين وخواء الإسلام من قلب مثل هذا الإنسان، قبّحه الله ولعنه، وقد ذهب إلى كفره جماعة من الأئمة منهم سعيد ابن جبير، ومجاهد، والنخعي وعاصم، والشعبي[3].

أفرأيتم إلى ذلك الشخص، إنّ أسماء لا تتهيّب أن تلقي بالحقّ في وجهه صراحًا دون مواربة أو مواراة، وتلك الأعمال من قتل وصلب وما دونها وما فوقها لا ترهبها ولا تردّها عن إتمام عملها على ما يدفعها إليه دينها وما يحملها عليه شعورها بمسئوليتها، فقالت كلمة الحقّ غير هيابة ولا متقية.

فلله هي، ولله درّها، ولله ما قالته.

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٨٠).

(٢) خبر قتل الحجاج لابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ثابت في البخاري، انظر: كتاب العيدين، باب ما يكره من حمل السلاح في العيد والحرم، وشرحه من الفتح.

(٣) تهذيب التهذيب (١/ ٣٦٣).

وفي بعض الروايات أنها لما قتل ابنها عبد الله خرجت إليه حتى وقفت عليه، وهي على دابة، فأقبل الحجّاج في أصحابه فسأل عنها فأخبر بها، فأقبل حتى وقف عليها فقال: كيف رأيت نصر الله الحق وأظهره؟ قالت: ربما أُديل الباطل على الحقّ، وإنّك بين فرشها والجيّة، فقال: إنّ ابنك ألحد في هذا البيت، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾[1] وقد أذاقه الله ذلك العذاب الأليم، قالت: كذبت، كان أوّل مولود ولد في الإسلام بالمدينة، وسُرّ به رسول الله ﷺ، وحنّكه بيده وكبّر المسلمون يومئذ حتى ارتجّت المدينة فرحًا به، وقد فرِحتَ أنت وأصحابك بمقتله، فمن كان فرح يومئذٍ خير منك ومن أصحابك، وكان مع ذلك برًّا بالوالدين صوّامًا قوّامًا بكتاب الله معظّمًا لحرم الله، يُبْغِض أن يُعصى الله عز وجل[2].

لقد دافعت أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن ابنها دفاعًا مجيدًا كان من أثره أن انقطعت حجّة الحجاج وانكسر، ولما لم يجد جوابًا انصرف عنها وولّى خائبًا.

ولقد بلغ ذلك الحوار عبد الملك، فكتب إلى الحجّاج يلومه في مخاطبته أسماء بهذا الذي قاله، وهذا من واجب عبد الملك نحو ذلك الشاذّ الذي لا يعرف أقدار الصحابة.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٥.

(٢) البداية والنهاية (١١/ ٢٠٩).

لكـــن عبد الملك إذ يفعل ذلك يقول له فـــي بعض ما قال: مالك ولابنة الرجل الصالح[1].

هكذا، باختيار أخفّ الألفاظ في معاتبته ولومه، وتهوين شأن أسماء وأبيها بأثقل ما يكون التهوين، حتى لقد غدت ذات النطاقين، هكذا «ابنة»، وغدا الصدّيق الرجل الذي ما وطئت الأرض قدم بعد النبيين والمرسلين خير من قدمه رجلًا صالحًا - من جملة الصالحين - فحسب!

ولا غرو فإنّ المناصب تفعل أكثر من هذا!

ولا عجب - كذلك - أن قيّض الله لها أبطالًا - ولو من النســـاء أمثال أســـماء - يذلّون أنوف أصحابها ويرغمونها في التراب، فيكونون على مـــا بأيديهم من المناصـــب في الأذلين الصاغريـــن، ويكون أهل الحق علـــى خلوهم من ذلك كلّـــه ملوكًا عالين، ملـــوك وإن كانوا بلا تيجـــان، فالملك الحق ملك الحق لا ملك المنصب والجاه وحوز الدرّ والياقوت.

طيّب الله ثرى أسماء وقدّس روحها في عليّين، ورضي عنها وعن آل بيتها من المسلمين والمؤمنين، وجعلها قدوة على الطريق للسائرات والسائرين.



(١) البداية والنهاية (١١/ ٢٠٩).



شهيد الحقيقة

كثيرٌ من قرَّاء المسلمين اليومَ لا يعرفون زيدَ بن عمرو بن نُفيل، على أنَّ زيدًا كان حلقة عظيمة من حلقات التوحيد قبلَ مبعث النبيِّ ﷺ.

فزيدُ بن عمرو مؤمنٌ مِن أهل مكَّة، آمَن بالله في الجاهليَّة قبل أن تَعرف مكَّةُ كلُّها الإيمانَ، وهو حنيفيٌّ عبد اللهَ على دِين الخليل إبراهيم يوم تنكَّرتِ الأرض جميعًا للتوحيد إلَّا مِن أفراد قلائل يعدُّون على أصابع اليد الواحدة من بقايا أهل الكتاب، وممَّن رفض الوثنيَّةَ الجاهليَّة وبحَث عن التوحيد، وكان زيدٌ أشهر هؤلاء الموحِّدين.

وُلد زيد بن عمرو قبل بعثة النَّبي ﷺ، فنشَأ وقومُه في جاهليةٍ جهلاء، كانت الأرض مِن قبل ذلك وأثناءه تَعِجُّ بالشِّرك وتغرقُ في مظاهره، فأقوام يتَّخذون مِن الحجارة والأشجار آلهةً يَعبدونها، وآخَرون اتَّخذوا مِن الظواهر الطبيعيَّة -كالشمس والقمر والنجوم والكواكب- آلهةً، وغيرهم قد صنعوا آلهةً من العجوة يَعبدونها حتى إذا جاعوا أكلوها!

نشأ زيدٌ يرى قومه في هذه الوثنيَّات جميعها، فلم يجِدْ في نفسه إليها ميلًا، ولم يجد في روحه لها إلفًا، فنبَذها جميعًا، واجتهد في البحث عن دين الله الحقِّ، الذي هو خير من هذه الأديان كلِّها.

وقد كانت مكة مثابةً للعرب جميعًا يفـدون إليها، فيحجُّون إلى البيت ويعتمرون، ويعظِّمون شـعائره، ويجلُّون أهلَه، وكان زيد يطوف على الوفود القادمة ليسـتمع منهم، ويتعرَّف إلـى عقائدهم، يبتغي أن يظفر بما يُشـبع نهمـه، ويروي ظمأه، فلما لم يجـد، عزم على الرحلة لطلب الهدى في هذه المسألة الكبرى، يفتِّش في البلاد وينقِّب ويسأل؛ ليحصِّل بغيته، ويصل إلى الحقِّ الذي تطمئنُّ إليه فطرته.

طـاف زيدٌ بأرجاء الجزيـرة العربيَّة، ورَحَل إلى الشـام، وطوى العراقَ، والتقى أحبـارَ اليهود ورهبانَ النصارى، وسـألهم عن دينهم ليتَّبعهم عليه ويدخل معهم فيـه، ويظهر أنَّه التقى كثيرين، فأصبح على خبرة ودرايةٍ بما يُقال له، وذا قدرة على مناقشته وحجاجِه، ويظهر أيضًا أن خبره اشـتهر بينهم حتى إنَّ الذين لقيهم آخـرًا كانوا يُخبرونه بنهاية الأمر الذي هم عليه، أو لعلَّه لقي أُناسًـا صادقين كأولئك الذين لقيهم سَـلْمانُ الفارسـيُّ في رحلته للبحث عن الدِّين الحق، فأخبَروه بالخير ونهايةِ الأمر الذي هم عليه، لقـد كانوا جميعًا يدلُّونه على الحنيفيَّة ملَّة إبراهيم عليه السلام!

روى البخاريُّ في صحيحه عن ابن عمر أنَّ زيد بن عمرو بن نُفيل خرَج إلى الشام يسأل عن الدِّين ويتَّبعه، فلقي عالمًا مِن اليهود فسأله عن دينهم، فقال: إني لعلِّـي أن أدين دينكم، فأخبِرني، فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذَ بنصيبك من غضَب الله، قال زيد: ما أفِرُّ إلَّا مِن غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شـيئًا أبدًا، وأنَّى أستطيعه؟! فهل تدلُّني

على غيره؟ قال: ما أعلمه إلَّا أن يكـــون حنيفًا، قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم، لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا، ولا يعبُدُ إلَّا الله، فخرج زيد فلقي عالمًا مِن النَّصارى، فذكر مثله، فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخـــذ بنصيبك مِن لَعْنة الله، قال: ما أفرُّ إلَّا مِن لعنة الله، ولا أحمل مِن لعنة الله ولا مِن غضبه شيئًا أبدًا، وأنَّى أستطيع؟! فهل تدلُّني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلَّا أن يكون حنيفًا، قال: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم، لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّـــا، ولا يعبُد إلَّا الله، فلما رأى زيد قولَهم في إبراهيم عليه السلام خرج، فلمَّا برز رفَع يديه فقال: اللهمَّ إنِّي أشهد أنِّي على دين إبراهيم[1].

لقد عُرض على زيد في رحلتـــه أن يتهوَّد أو يتنصَّر، فأبى، ورغب في أن يكمل البحثَ عن الأصوب والأحقِّ والأكمل، لقد كان ممَّن طلَب التوحيدَ، وخلَع الأوثان، وجانَب الشِّـــركَ كلَّه دِقَّـــه وجِلَّه، روى البزار والطبراني من حديث ســـعيد بن زيد قال: «خـــرَج زيد بن عمرو وورقةُ ابن نوفل يَطلبانِ الدِّين، حتى أتيا الشـــام، فتنصَّر ورقة وامتنع زيدٌ، فأتى الموصل فلقي راهبًا فعرض عليه النصرانيَّةَ فامتنع، فرجع وهو يقول:

- لبيك حقًّا حقًّا.. تعبُّدًا ورِقًّا.

البـــرَّ أبـغـي لا الـخـال

وهـــل مُهَجِّر كمـــن قال؟

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٥).

آمنتُ بما آمن به إبراهيم، وهو يقول:

أَنفِـي لـك اللهـمَّ عـانٍ راغمُ
مهمـا تُجَشِّـمْني فإنِّي جاشـمُ

ثم يخر فيسجد»[1].

وكان يقول:

وَأَسْـلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْـلَمَتْ
لَـهُ الأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْـرًا ثِقَالَا
دَحَاهَـا فَلَمَّـا اسْـتَوتْ شَـدَّهَا
سَـوَاءً وَأَرْسَـى عَلَيْهَـا الجِبَالَا
وَأَسْـلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْـلَمَتْ
لَهُ المُـزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًـا زُلَالَا[2].

وفي حديث زيد بن حارثة أنَّ النبيَّ ﷺ قال لزيد بن عمرو: «**ما لي أرى قومَك قد شَنِفوا لك؟**»؛ أي: أبغَضوك، قال: خرجتُ أبتَغي الدِّينَ، فقدمتُ على الأحبار فوجدتهم يعبدون اللهَ ويُشركون به[3].

لقد تبصَّر فأنكَرتْ فطرتُه أن يبقى في الشِّـرْك وهو باطل محض، وأبَتْ همَّتُه أن يرضى بحقٍّ خُلط بباطل، ولم يسـتكن إلى ما ورثه ونشأ

(١) أخرجه الطيالسي (ص ٣٢)، وانظر: إتحاف الخيرة المهرة (١/ ١٠٤).
(٢) انظر: البداية والنهاية (٢/ ٢٤٢)، ط الفكر.
(٣) أخرجه البزار (١٢٦٦).

عليه؛ وإذ لم يَظْفر ببغيته في موطنه مع استفراغ الوُسع في البحث عنه، رحَل في البلاد يطوف فيها؛ ليعثر على الهدى، فلله هو! ولله همَّته!

إنَّها النَّجاة التي تتطلَّب منَّا جهدَ الحياة كلَّه إذا استدعى الأمر، إنَّها سعادة الدنيا والآخرة، الحياة الحقيقيَّة هنا وهناك في الآخرة، فكيف يتوانى عنها أو يكسل، أو يركن إلى معلومة زائفةٍ، أو معرفةٍ غير يقينيَّة؟ بل لو تتطلَّب الأمر سعيَ الحياة كلَّه، والتضحية بعزِّ الدنيا كلِّه، وبذل الغالي والنفيس ثمنًا لتحصيلها، لم يكن ذلك كثيرًا عليها، ألا ما أسعَدَ زيدَ بن عمرو بن نفيل بما حصَّل، وما إليه توصَّل!

رجع زيد مِن رحلته هذه وكلُّه يقين بأحقيَّة ما هو عليه من دِين، وما هو عليه من مجافاة لعادات قومه وعباداتهم، وكان يجأر بذلك ويتحدَّث به بينهم؛ فعن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالت: رأيتُ زيدَ بن عمرو بن نفيل قائمًا مسندًا ظَهرَه إلى الكعبة يقول: يا معاشر قريش، واللهِ ما منكم على دين إبراهيم غيري[1].

أربٌّ واحدٌ أم ألفُ ربٍّ
أدينُ إذا تقسَّمتِ الأمورُ
عَزَلْتُ اللَّاتَ وَالعُزَّى جَمِيعًا
كَذَلِكَ يَفْعَلُ الجَلْدُ الصَّبُورُ
فَلَا العُزَّى أَدِينُ وَلَا ابْنَتَيْهَا

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٦).

وَلَا صَنَمَـيْ بنـي عمـرٍو أَزُورُ
وَلَا غُنْمًـا أَدِيـنُ وَكَانَ رَبًّـا
لَنَا فِـي الدَّهْـرِ إِذْ حِلْمِي يَسِـيرُ
عَجِبْـتُ وَفِـي اللَّيَالِـي مُعْجِبَاتٌ
وَفِـي الأَيَّـامِ يَعْرِفُهَـا البَصِيـرُ
بِـأَنَّ اللَّـهَ قَـدْ أَفْنَـى رِجَـالًا
كَثِيـرًا كَانَ شَـأْنُهُمُ الفُجُورُ
وَأَبْـقَـى آخَـرِيـنَ بِـبِـرِّ قَـوْمٍ
فَيَرْبُـلُ مِنْهُـمُ الطِّفْـلُ الصَّغِيـرُ
وَبَيْنَـا المَـرْءُ يَعْثُـرُ ثَـابَ يَوْمًا
كَمَـا يتـروَّحُ الغصـنُ النضيـرُ
وَلَـكِـنْ أَعبـد الـرَّحْـمَـنَ رَبِّـي
لِيَغْفِـرَ ذَنْبِـيَ الـرَّبُّ الغَفُـورُ
فَتَقْـوَى اللَّـهِ رَبِّكُـمُ احْفَظُوهَا
مَتَـى مَـا تَحْفَظُوهَـا لَا تَبُـورُوا
تَـرَى الأَبْـرَارَ دَارُهُـمُ جِنَـانٌ
وَلِلْكُفَّـارِ حَامِيَـةً سَـعِيرُ
وَخِـزْيٌ فِـي الحَيَـاةِ وَإِنْ يَمُوتُوا
يُلَاقُـوا مَـا تَضِيـقُ بِـهِ الصُّدُورُ

وكان زيد يُغايِرُ عاداتِ قومه السيئةَ ويسعى في تغييرها، لقد كان يحجُّ معهم ويعتمِر، ويطوف بالبيت ويسعى بين الصَّفا والمروة، ولا يقرب شيئًا مِن أصنامهم التي يشركونها مع الله في عباداتهم، كانوا يلبُّون فيقولون في تلبيتهم: «لبيك اللهمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إلَّا شريكًا هو لك، تَملِكه وما ملَك»، فكان زيد يشاركهم القولَ في: «لبَّيك اللهمَّ لبَّيك، لبَّيك لا شريك لك لبَّيك»، ثم يقول لهم: كفى، فواللهِ لا يملِك أحدٌ مع الله شيئًا.

وكان رضي الله عنه وأرضاه يُحيي الموءودة، فإذا سمِع بأنَّ أبًا يريد أن يقتل ابنتَه، أتاه فقال له: لا تقتلها، أنا أكفيكها مؤونتها، فيأخذها، فإذا ترعرعَتْ قال لأبيها: إن شئتَ دفعتُها إليك، وإن شئتَ كفيتُك مؤونتها[1].

وكان زيدٌ يأبى أكْلَ ما ذُبح للأصنام، يؤتى بالشَّاة فتُذبح عند الأصنام قربانًا لها، فيعيب ذلك على ذابحها بقوله: الشَّاة خلقها الله، وأنزل لها العشبَ من السماء، ثمَّ تذبحونها لغيره؟!

ويأبى أن يأكُل منها، وهذه واللهِ عجيبةٌ من عجائبه، قد أشبَه فيها رسولَ الله ﷺ؛ فقد كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كذلك لا يأكل مما ذُبِح على النُّصُب.

روى البخاريُّ عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبي ﷺ لقي زيدَ بنَ عمرو بن نُفيل بأسفلِ بَلْدَحٍ قبلَ أن ينزل على النبيِّ ﷺ الوحي،

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٦).

فقُدِّمتْ إلى النبي ﷺ سـفرة، فأبى أن يأكل منها، ثمَّ قال زيد: إنِّي لستُ آكل مما تَذبحون على أنصابكم، ولا آكُلُ إلَّا ما ذُكر اسم الله عليه، وأن زيد بن عمرو كان يَعيب على قريش ذبائحَهم، ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزَل لها مِن السـماء الماءَ، وأنبت لها مِن الأرض، ثمَّ تذبحونها على غير اسم الله؟! إنكارًا لذلك وإعظامًا له[1].

ثمَّ ينطلق زيدٌ وهو يقول: «لبَّيك حقًّـا حقًّا، تعبُّدًا ورِقًّا»، ثمَّ يخرُّ فيسجد لله[2].

وهذه أخلاق الفِطرة السَّـليمة، وهي هي تعاليم الدِّين الصَّحيح، وما الفطرة والدين إلَّا مِن مِشـكاة واحدة، فإنَّ الدين هو ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[3].

ولكن لِمَ رجع زيد إلى مكَّةَ ولم يبقَ بأرض الشـام أو العراق، أو بغير مكَّة من أراضي جزيرة العرب؟

تُحدِّثُنـا الكتب بأنَّ أحد الأحبار الذيـن لقيهم في رحلته قال له: «ارجع؛ فإنَّ النبيَّ الذي تنتظره يَظهر في أرضك»، وفي بعض الرِّوايات أنَّ زيدًا قال: قال لي شـيخ من أحبار الشـام: إنَّك لتسألني عن دينٍ ما أعلم أحدًا يعبد اللهَ به إلَّا شـيخًا بالجزيرة، قـال: فقدمتُ عليه، فقال:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٤).
(٢) أخرجه الطيالسي (ص٣٢).
(٣) سورة الروم، الآية: ٣٠.

إن الذي تطلب قد ظهَر ببلادك، وجميع من رأيتَهم في ضَلال»[1]، وفي رواية الطبراني من هذا الوجه: «وقد خرَج في أرضك نبيٌّ، أو هو خارِجٌ، فارجع وصدِّقْه وآمِنْ به، قال زيد: فلم أُحِس بشيء بعد»[2].

رجع زيد إلى مكَّةَ، وظلَّ على أخلاقه تلك النَّبيلة، وكان مِن أَمَله أن يلقى النبيَّ المنتظَر، فيكون معه، ويخدمه، وينصُره، ويؤازِره، ويغسل التـــرابَ عن قدميه؛ لقاءَ أن يعرف منه الحقَّ الذي جاء به، وأن يدلَّه على الهدى الذي حار حيرتَه الكبرى لأجله، وشـــقي شـــقاوتَه تلك جميعها لتحصيله.

وقد لقي زيدٌ رسولَ الله ﷺ غيرَ ما مرَّة، إلَّا أنه لم يدرِك البعثةَ، وإن كان النبيُّ ﷺ قد أثنى عليه ومدَحَه، وبَشَّر بمنزلته ودرجتِه في الآخرة.

وبعضُ الأحاديث تروي إسلامَه وإيمانَه بالنبيِّ على الغيب، وأنَّه بعث إليه بالسلام؛ فقد روى محمد بن سعد والفاكهي من حديث عامر بن ربيعة حليف بنـــي عَدي بن كعب قال: قال لي زيـــد بن عمرو: إنِّي خالفتُ قومي، واتَّبعتُ مِلَّةَ إبراهيم وإســـماعيل وما كانا يَعبدان، وكانا يصلِّيان إلى هذه القِبلة، وأنا أنتظر نبيًّا من بني إسماعيل يُبعث، ولا أُراني أدركه، وأنا أومن به وأصدِّقُه وأشهد أنَّه نَبي، وإن طالت بك حياة فأقرِئْه منِّي السلام.

---

(١) حديث حســـن، أخرجه أبو يعلى (٧٢١٢)، وغيره، وصححـــه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) حديث صحيح، أخرجه الطبراني؛ كما في المجمع (٩/ ٤١٧، ٤١٨).

قال عامر: فلمَّا أســلمتُ أعلمتُ النبيَّ ﷺ بخبره، قال: فردَّ عليه السلام وترحَّمَ عليه، قال: «**ولقد رأيتُه في الجنَّة يسحب ذيولًا**»(١).

وفي بعض الروايات الصَّحيحة عن ســعيد بن زيد قال: فســألتُ أنا وعمر رسولَ الله ﷺ عن زيد؟ فقال: «**غفَر اللهُ له ورحمه؛ فإنَّه مات على دين إبراهيم**»(٢).

وعن ســعيد بن زيد قال: سألتُ أنا وعمر بن الخطاب رسولَ الله ﷺ عن زيد بن عمرو، فقال: «**يأتي يومَ القيامة أمَّةً وحدَه**»(٣).

لقــد كان هاجس عدَم إدراكــه مَبعث النبيِّ يلــحُّ عليه في أوقاته جميعها، حتى وافاه الأجَلُ، فيُروى أنه في إحدى رحلاته هجَم عليه قومٌ مِن قبيلة بني لخم اليمنيَّة، فقتلوه، فقيل: إنَّه سُــمِع في النَّزع وهو يقول: «اللهمَّ إن كنتَ حرمتني صحبةَ نبيِّك، فلا تَحرم منها ابني سعيدًا».

وبالفعل كان زيد بن عمرو بن نفيل -هذا العملاق- هو والد سَعيد بن زيد أحد العشرة المبشَّرين بالجنَّة، رحمهما الله ورضي عنهما.

كانت الفترة التي بين مَوت زيد ومَبعث النبيِّ فترة قليلة جدًّا، حتى روى الزُّبيرُ بن بكَّار من طريق هشــام بن عروة قال: «بلَغَنا أنَّ زيدًا كان

---

(١) أخرجه ابن ســعد (١/ ١٦١ و٣/ ٣٧٩)، وعنه الطبري في التاريخ (١/ ٥٢٩)، وهو ضعيف الإسناد، لكن لبعض عبارات المتن شواهد توحي بصحَّته.

(٢) انظره في فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٧/ ١٧٦).

(٣) رواه النســائيُّ في الســنن الكبــرى (٨١٨٧)، وحسَّــنه الحافظ ابــن كثير؛ = = انظر: البداية والنهاية (٢/ ٢٤١)، ط الفكر.

بالشـــام، فبلغه مخرج النبيِّ ﷺ فأقبل يريده، فقُتـــل بمضيعةٍ مِن أرض البلقاء، وقال ابن إسحاق: لما توسَّط بلاد لخم قتلوه»[١].

وقد قال رفيقه ورقة بن نوفل يرثيه:

رشدتَ وأَنْعَمْتَ ابنَ عمرٍو وإنَّما
تجنَّبـــتَ تنُّـــورًا مِن النـــار حامِيَا
بدِينِـــك ربًّـــا ليـــس ربٌّ كمثلِـــه
وتركِك أوثـــانَ الطَّواغي كما هيَا
وقد تُدرِكُ الإنســـانَ رحمـــةُ ربِّهِ
ولو كان تحت الأرضِ ستين وادِيَا[٢]

وقيل: إنَّ زيدًا مـــات قبلَ المبعث بخمس ســـنين؛ أي: عند بناءِ قريش الكعبةَ[٣].

لقـــد كان زيد يتردَّد بين مكَّة والشـــام، كأنَّه يســـتحثُّ الأيام على المضيِّ؛ ليأتي اليومُ المنتظَر ومعه النبيُّ، أو كأنَّه كان يأتي الشام يتلمَّس التأكيدَ على الخبر في روايات الـــرواة وأخبارهم، أو يلتمَّس الأمارات والشواهد على قُرب هذا الوقت.

(١) فتح الباري (٧/ ١٧٦).
(٢) البداية والنهاية (٢/ ٢٤٣).
(٣) فتح الباري (٧/ ١٧٦).

وفي بعض أسـفاره إلى الشَّـام قيل له: إنَّ الـذي تطلُبُ موجود بالفعل في أرض مكَّةَ، فاستحثَّ السَّيرَ إليها وأسرَع، لكن القدَر كان إليه أسرَع، فوافاه الموت في الطريق، قتَلَه أولئك البغاة، ولا ندري بأيِّ ذنبٍ قتلوه، رحمه الله ورضي عنه، أحسبه شهيد الحقيقة.

وعن جابر قال: سُـئل رسـولُ الله عن زيد بنِ عمرو بن نُفَيل أنَّه كان يسـتقبل القِبلةَ في الجاهليَّة، ويقول: إلهي إلهُ إبراهيم، وديني دينُ إبراهيم، ويَسـجد، فقال رسول الله: «**يُحشَـرُ ذاك أمَّةً وحدَه بيني وبين عيسى ابن مَريم**»[1].

وقـال ﷺ: «**دخلـتُ الجنَّـةَ فرأيتُ لزيـد بن عمرو بـن نُفيل درجتين**»[2].

رحِم الله زيدًا، وقدَّس روحه في علِّيِّين.

(١) أخرجه النسـائي في السنن الكبرى (٨١٨٧)، وحسـنه الحافظ ابن كثير؛ انظر: البداية والنهاية (٢/ ٢٤١).

(٢) أخرجه ابـن عسـاكر (١٩/ ٥١٢)، وحسـنه الألباني، انظر صحيـح الجامع (٣٣٦٧)، والصحيحة (١٤٠٦).



بَدْرُ المحدِّثين

أسرعت القابلة بالبشـــرى إلى الأب الذي ينتظر في صحن الدار متلهفًا، وهي تصيح: بشراك يا سيدي بشراك!

أتاها صوت الأب: بشري عنهما بشرك الله بكل خير!

- أبشر، فالأم بخير والبنية كالقمر!

تهلـــل وجه «أحمد» بالســـرور وعاد إلى وجهه لونـــه بعدما كان تكدر بألوان شتى خوفًا على زوجه التي جاءها المخاض وطال عناؤها في الغرفة مع النساء، وكان لســـانه لا يكل من الدعاء لزوجه ومولودها بالسلامة.

- الحمد لله، وشكر الله لك.

- ماذا تسميها إن شاء الله!

- أسميها كريمة.

قال هذه الكلمة ثـــم ذهب بخاطره بعيدًا وهو يتابع كأنه في حلم: فما زال كرم الله علينا واســـعًا وعظيمًا منذ حلت بنا ونزلت وأسأل الله أن يجعلها من أهله الكرام، ثم رفع رأسه يدعو:

«اللهم أكرمنا وإياها بكرمك، واجعلنا من خدام دينك»!

ثم التفت فجأة إلى القابلة التي وقفت تؤمن على دعائه وقال:

- هل يمكنني أن أطمئن عليهما؟

- نعم سيدي تفضل!

تقدم بخطواته الهادئة الخاشـعة إلى الغرفة التي ترقد فيها زوجه ولسـانه لا زال يلهج بالذكر والدعاء حمدًا وشـكرًا ومسألة لربه، وما إن وقعت عيناه على زوجه وابنته حتى خرَّ سـاجدًا لله يشكر الله على عطائـه ومنِّه بالعافية لزوجه وبالحياة لابنتـه التي رآها فرأى في وجهها البدر حين تمامه.

***

ترعرعـت «كريمة» بين والديها في سـعادة منهمـا بها إذ كان ذكاؤها وفطنتهـا يبهرانهما ومـن حولهما يومًا بعـد يوم، ودخلت الكُتَّاب فحفظت القرآن الكريم وهي بنت سـبع سنين وكانت بمثابة مركز الدائرة مـن معلِّميها، وبعد أن أجازوها فـي القرآن، طاف بها والدها على شيوخ الحديث في بلدها تسمع منهم حديث رسول الله ﷺ حتى جمعت ما عندهم من العلـم في وقت قصير، وكان والدها سـعيدًا وتتجدد سعادته كلما أوصاه أحد شـيوخها بأن لا يقصِّر في تكملة «كريمة» مشـوار الرِّواية، وكان يؤكِّد على القول بأنها مستمرَّة وأنَّه داعمها بمشـيئة الله تعالى راجيًا اللـه أن يتقبلهما خدَّامًا لدينه، حملة لحديث رسوله ﷺ.

وقد استجاب الله دعاء الوالدين الكريمين في ابنتهما وأجابهما بحسن نيتهما ونيتها فرزقهم الهمة والعزم ووفَّق لهم أولي العلم والفضل، وسدد طريقهم ورشَّد سبيلهم، وزادهم أن جمعت «كريمة» إلى الحديث فِقهَه.

عاشت «كريمة» حياتها تحفظ وتروي وتتعلم وقد وصلت نفسها بسبب من أئمة الحديث الكبار كالبخاري ومسلم وأصحاب الكتب الستة وغيرهم من أصحاب المسانيد والسنن والمجاميع وغيرها من كتب السنة المطهَّرة، كل ذلك ترحل إليه من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر في مشارق الأرض ومغاربها.

***

تقدَّم السنُّ بكريمة وكان أبواها يلاحظانها تشبُّ وتصل إلى منتصف عقدها الثالث يشغلهما كثرة الخطَّاب الذين يطرقون بابهم وهي معرضة لا تجيب منصرفة لا تلتفت، والناس لا يملون من القول: نريدها زوجة لابننا فمثلها لا تترك ولا تعوَّض.

كان والدها يتحدَّث إليها في هذا، وكذا كانت تفعلُ أمُّها وكانت كريمة تجيبهم في صراحة بأنها لا ترغب في الزواج الآن، وأنها في شُغُل عن ذلك، وتعدهم بأن تفكِّر في هذا لكنها تريد أولًا أن تستكمل عدتها وتروي ظمأها من العلم، فلا يسع أبويها إلا أن يسكتا عنها مدة، ثم يعاودانها بالكلام في ذات الأمر بعد وقت فتعود هي لما أجابتهما به قبل ذلك، وهكذا حتى كان يوم من الأيام فاجأت «كريمة» والديها بطلب عجيب.

جلســت «كريمة» في ذلــك اليوم مــع والدَيهــا فكلَّمَتْهُما عن المســجد الأقصى وما ورد في مكانته وفضله وفضل زيارته من الآيات والأحاديــث والآثار، وختمت ذلك بطلبها من والدها أن يرافقها لزيارة المسجد الأقصى.

***

لم يَعجب والداها من طلبها ذاك لعلمهما بحبها للرحلة في طلب الحديث إلى كل مكان فكيف بمكان كهذا الحرم الثالث وأولى القبلتين في الإســلام، ولم يؤخر الوالد جوابها عن طلبها فأجابها ســريعًا بأنه ســيُعدُّ العُدَّة لهذا الأمر ويرتبه، ولها أن تطمئن بالانصراف إلى مباشرة أعمالها ومشاغلها وهو يدبِّر لذلك بمشيئة الله وتوفيقه.

أقبلت «كريمة» على العلم بنفس شغوف يحدوها الأمل في رحلة جديدة في طلب الحديث وسماعه وأيضًا هي رحلة تختلف عن غيرها من الرحلات فهي إلى بيت المقــدس، وكان والدُها في هذه الأوقات يرتِّب للرحلة حتى اســتوفى ما أراد من ترتيبات ثم جاء يبشــرها بوقت الرحيل فجهزت نفسها وكثفت من عقد مجالس التحديث لبني بلدها، وفــي اليوم الموعود ودعت شــيوخها وطلابها وخرجــت إلى غايتها المحبوبة وأملها المرتقَب.

سارت القافلة بهم وحطت حتى وصلوا إلى مدينة القدس الشريفة فنزلت «كريمة» تبث البيت والصخرة وما حولهما أشــواقها فنعمت في مدينة السلام إقامة وبالمسجد صلاة وبمن فيها من العلماء سماعًا ولقاء

وسمعت من محدثيها وناقشت فقهاءها، فلا تسل عن إعجابهم بها وترحيبهم بوجودها وسعادتهم الغامرة برؤية مثلها في علمها الواسع وأدبها السامي وهمتها العالية.

وبعد أيام وأيام قضتها الأسرة في رحاب الأقصى الشريف قررت الرحلة منه إلى البلد الحرام، وهناك كان الحرم المكيُّ حديقة «كريمة» الغناء وبستانها العامر بكل الزهر والورد من جميع الألوان؛ إذ التقت هناك أئمة الإسلام وعظماءه من كان منهم مقيمًا أو مجاورًا في البلد الحرام أو حاجًّا إليها من أيِّ مكان وكانت شهرتها قد سبقتها، فتهافت الشيوخ والعلماء يحملون عنها حديث أهل بلدها والبلاد المجاورة لها ومن لقيت من الكبار ويقارنون أسانيدهم بأسانيدها، ولم تخل لحظة في رحلتها من فائدة، فارتفعت همتها وسمت عزيمتها لأن تفكر في إطالة رحلتها أكثر ما تستطيع من الأوقات وكم تمنت لو سمح لها والدها بالبقاء هنا في جوار البيت الحرام فقضت حياتها كلها إلى جواره تأنس إليه وتجاور عنده، غير أنها حدثت نفسها بأن ذلك الأمل ليس بالسهل تحققه، لكنها سألته ربها تبارك وتعالى في سجودها عند البيت، وفي أخريات أيام رحلتهم تحدثت إلى والدها برغبتها وفوجئت بوالدها يوافقها الفكر ويشاركها العزم، فسعى لترتيب أموره ليقيم هنا في مكة في البلد الحرام، وقد وفقهم الله لذلك وهيَّأ لهم الأسباب كلها ويسَّرها لهم، وكانوا من سكان البلد الحرام، ومن وقتها بدأت مرحلة جديدة في حياة «كريمة» التي لم يلقها أحد من شيوخها إلا قال: لست «كريمة» بل أنت «أمُّ الكرام».

جاورت كريمة في الحرم وجلســت في صحن الكعبة، وتقدم بها العمر، وانشــغلت بالعلم والعبادة تبث علومها في الطلاب وتهرع حينما تعلم بوجود زائر جديد يحمل من الحديث ما ليس عندها، وكانت الوفود تأتيها من كل ناحية تطلب حديثها حتى إنَّ العلماء الكبار في نواحي العالم الإســلامي رحلوا إليها، وكانت تشتهر برواية صحيح البخاري وإسماعه وبلغت فيه حدًّا لم يبلغه غيرها؛ إذ أخذته بإسناد عالٍ، مصحَّحًا، عن شيوخ خراســان، وقد حافظت كريمة على ضبط الصحيح وكذا جميع مروياتها من الحديث فكانــت إذا روت قابلت بأصلهــا، وتمكنت خلال إقامتها بمكــة من إقراء «الصحيح» مرات كثيرة، في أيام الموســم وغيرها، وقد صارت نســختها من الصحيح من بين أوائل النسخ المعتمدة بين طلاب الحديث في العالم، وبقيت يحفُّونها ببالغ الإكرام، حتى إن من الأئمة من أوصى تلاميذه بألا يأخذوا (صحيح البخاري) إلا عن «كريمة».

وما عالمٌ جالســها وأخذ عنها إلا وعاد يرشِّحها لإخوانه وطلَّابه ليفدوا عليها ويسمعوا منها.

وقد تأملــت يومًا في أخبارهــا فهيَّجت ســيرتها وأخبارها مني الفؤاد، فشعرت أني جلست بتجرُّد من العالم حولي أرسل إليها رسالة، وشــعرت من قلبي أنها تصلها بحروفها، وها أنا أثبت لكم هذه الرسالة هنا بروحها التي كنت كتبتها بهــا، دون تبديل أو تغيير، لتكون وفاء لها رحمها الله وأنار قبرها، ولتكون كذلك رســالة إلى (كل كريمة) تطلب العلم اليوم وتُؤثره على كل شيء، لتتعرف من خلالها على سِيَر قدواتها

العظيمات في التاريخ، وما هنَّ بالقليل.. وهي رسالة أيضًا للآباء والأمهات.. ليعتنوا في تعليم العلم الشرعي بالبنات كما يعتنون بالبنين:

رسالة إلى «كريمة»:

غاليتي كريمة، أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي وأسلم على رسوله المصطفى ونبيِّه المجتبى وبعد، فأحييك بتحية الإسلام:

السلام عليك ورحمة الله وبركاته، وأدعو الله عز وجل أن تكوني بخير مكان وحال، فمنذ سنين عديدة حين حللتِ بهذه الحياة أنرتِ الدنيا وأشرق بك وجهُها، وكنت كمن تسطر بحالها قبل مقالها أن لها في هذه الحياة شأنًا ولها مع الله حالًا، وكذلك قد كان.

وحين ترعرعتِ -يا أخيَّة- شابة تدور في حياء وستر بين حلقات العلم المختلفة وحبِّب إليك حديثُ رسول الله ﷺ فأقبلتِ عليه بكل جوارحك وأعطيته كلَّ وقتك واستنفدتِ فيه كل طاقتك وبذلت فيه كل جهدك حتى شهد من بين المشرق والمغرب ببراعتك.. لم تكوني تخرجين عن ذلك النمط الذي اختير لك لتشرق الدنيا ببهاء جهودك وتستنير الأرض بروعة أعمالك.

هل علمت بما قال منصور حين عاد من الحرم ورأى من علمك وعرف من فضلك وسمع من حديثك.. ماذا قال لولده وأهل حلقته؟

لقد ذكرك لأهل الفضل والخير ثم رفع عقيرته يسمع الناس: وهل رأى إنسان مثل كريمة؟

وهل نقل إليك الكرام يا غاليتي ما حدث به العالم الكبير أبو الغنائم النرســي، بالذي كان منك له وما كان منه لك في العلم بمرأى ومسمع من الناس عند الحرم في مجلس الحديث؟ لقد أخبر بذلك وحكاه حين عاد إلى طلابه كأنما كان يحدث ويقع وهو يحكيه، قال: أخرجَت كريمة إليَّ النسخة «بصحيح البخاري» فقعدت بحذائها، وكتبت سبع أوراق، وقرأتها، وكنت أريد أن أعارض نسختي على نسختها وأقابلها وحدي، فقالت: لا، حتى تعارض معي.. فعارضت معها.. ثم قال: وقرأت عليها من حديث رسول الله ﷺ.. يا لهمتك في العلم كما هي في العبادة!

للــه أنت، يا عزيزتي، كم هي طيبة أعمالك وكم هي عظيمة نافعة جهودك، فأي شيء منها أعدِّد وما منها أوثره هنا بالذكر؟

إنَّ اختيارك الحرم يا «كريمة» لتجاوري عنده زاهدة في جميع متع الحياة الدنيا لم يكن هباء ولا عبثًا، ولعل الحرم اختارك قبل أن تختاريه وناداك قبــل أن تناديه، والظن بأنك لم تفارقيه إلــى يومنا هذا بموعود النبي الكريم ﷺ.. فلعلك هناك عند البيت المعمور المسامت له.

وأحــب أن أنهي إليــك أن أحوالك وأخبارك تصلنــا، فكل من لقيك هنــاك من العظماء والثقــات وأبناء الخير والصــلاح قد طمأننا على حالك الطيب وحدثنا بأخبــارك ومقالاتك العذبة وأروانا وأروى الدنيا من أخبارك وأحاديثــك، فلله درك حين انتفعت بلقياهم وانتفعوا بك وتخرجت عليهم وتخرجوا عليك واســتمر النور في الدنيا بسببك وحبلك حين أخذته ممن سبقك وأعطيته من لحقك.

أسأل الله أن يجعل لك بذلك كله أجرًا وافيًا ورزقًا طيبًا وفردوسًا عاليًا وصحبة بمن تعلقتِ بكلامه وحفظتِ جميع أقواله ونقلت إلى الدنيا عبير حديثه، جمعك الله وجعلك رفيقة للمصطفى في الجنة.. تسمعين حديثه عن قرب وترين وجهه الأنور عن كثب كما كان حرصك على حديثه بالحرف بل بالشكل.. آمين ومن قال: آمين.

غاليتي كريمة!

من قال إنك حين تخليت عن الزواج إيثارًا للعلم قد انتهى ذكرك أو انقطع برُّك، هأنذا أكتب إليك وأذكرك وأنا واحد من بين مئات الألوف يرددون اسمك، كلهم عارف بشأنك مقدّر لمنزلتك ذاكر لفضلك..

نعم مرَّت هذه السنوات الطويلة ولكن ذكرك باق بيننا لم يفارقنا، وبهاء طلتك بمجالس الحديث باقية لا تفنى، يذكرك أهل الخير بأحسن الذكر ويثني عليك الصالحون بأطيب الكلم، فلله درك، ما أكثر ما أقام ربي فينا من آيات إخلاصك، ولئن فارقتنا بالجسد فتلك الروح باقية وما أجمل أن يكون الذكر مرتبطًا بحديث المصطفى إن يذكر حديثه تذكرين، فأي خير أنت مقيمة عليه وما زلت وعملك الصالح قائم بهذا لم ينقطع، وأي شرف فوق أن كنت وما زلت حلقة في سلسلة أولها رسول الله ﷺ؟!

لن أستفيض في حديثي فأشغلك عما أنت فيه -إن شاء الله- من نعيم، ولا أخبرك بشيء أنت إن شاء الله أعلم به مني، حين ترفع إليك أجوره وثوابه فتسألين ربك: بم هذا؟ فيقول لك: هذا باستغفار أهل الحديث في بلد كذا -وكل لحظة يصعد إليك الأجر من بلد-، أو يقول لك: هذا بإقامة

إمام أو عالم على خدمة شيء من آثارِك ينفع به الناس -وفي كل وقت ينفع بشيء منها عالم وإمام وينتفع بها ألوف إن لم أقل: ملايين-!

فطيب الله في جنة الخلد مقامكِ، ورفع الله في الفردوس محلك ومكانك، وأنزلك منه سبحانه خير منزل وأكرمك بأعظم كرامة!

لله أنت ولله والد أدبك ورباك وعلمك وساعدك، ما زالت الدنيا تذكر رحلته بك إلى بيـــت المقدس والعودة بك إلى جوار الحرم كأنما حدثت الساعة، فسلام عليه في العظماء والأخيار..

وسلام عليك يا «كريمة» في الخالدين، سلام عليك يا مروزية..

سلام عليك أيتها الشـــيخة العالمة.. سلام عليك يا معلمة الأئمة وقدوة نســـائنا في الخالدين.. ســـلام عليك يا «أم الكرام» ورحمة الله وبركاته.. والموعد الله في دار السلام.

***

يقـــول الراوي: عاشـــت كريمة بنـــت أحمد بن محمـــد بن حاتم المروزية بقية عمرها إلى جوار الحرم، تحدث في صحن الكعبة، وبارك الله علمها وطلابها ومدَّ في عمرها فعاشت مئة سنة وماتت راضية مرضيَّة ممتعة بعقلها وفهمها، حاضرة معرفتها وافر خيرها وبرُّها مكثرة من التعبُّد لربِّها، وقد نسيت وسط هذه الأشغال كلها أن تتزوج فتعوَّضت بلذَّة العلم عن كل ما سواه وماتت بكرًا لم تتزوج أبدًا في عام (٤٦٣ هـ)[1].

(١) راجع في أخبار كريمة: سـير أعلام النبـلاء ١٨/ ٢٣٣، والعبر ٣/ ٢٥٤، ودول الإسلام ١/ ٢٧٤، والبداية والنهاية ١٢/ ١٠٥، وشذرات الذهب ٣/ ٣١٤.



حامل أمانة الدّين إلى الأجيال

الدين هو الأمانة التي ائتمن الله عليها الإنسان فرضي أن يحملها ويقوم بحقّها بعد ما أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنه وأشفقن منه، ومن ثم وجب على الإنسان أن يقوم بهذه الأمانة وأن يحافظ عليها ويصونها، ذلك واجب كل جيل من الأجيال حتى يسلمها للأجيال التي بعده، كاملة غير منقوصة.

ومن الواجب على كلّ مسلم أن يعرف قدر هذه الأمانة ويدرك أهميتها وحقٌّ عليه أن يساهم في المحافظة عليها بما عليه في ذلك من نصيب، والعبء الأكبر في هذا بلا ريب يقع على العلماء؛ لأنهم رواد الطليعة الإسلامية في كل جيل، فالناس تتبعهم على مواقفهم، وتأتسي بأعمالهم، وتقتدي بأحوالهم. وقد فهم القادة الأولون ذلك كلّ الفهم وعرفوه كلّ المعرفة، وها هو ذا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول في محنة الردّة: «إنه قد انقطع الوحي وتم الدين، أينقص وأنا حي؟!»، «أينقص وأنا حي؟»[1]، وقال: «والله لأقاتلنهم ما استمسك السيف في يدي، ولو لم يبق في القرى غيري»[2]، وقال: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة

(١) قال في الرياض النضرة في مناقب العشرة (٢٤٧): خرجه النسائي بهذا اللفظ ومعناه في الصحيحين.

(٢) البداية والنهاية (٦/ ٣٠٤).

والزكاة فإن الزكاة حق المـال، والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه[1].

هكذا فهم القادة الأولون أمانة الدين ودورهم الواجب في صيانته والمحافظة عليه ووجوب تسليمه للأجيال اللاحقة كاملًا غير منقوص سليمًا غير مشوّه.

ولئن وجدت الدعوة بضـرورة التكافل الاقتصادي والاجتماعي بين الأفـراد والأجيال فإن الدعـوة إلى التكافل الديني أشـد ضرورة فالدين مقدم على كلّ ما سـواه وحاجة النّاس إلى الدين هي أشـد من حاجتهم الطعام والشراب.

وقد وعى علماؤنا الكرام هذا الدرس جيّدًا فضربوا لنا المثل الأعلى في الحفاظ على الدين وبذلوا المهج والأرواح فداء له، في ميدان الدفاع عنه ضد الأعداء الكائدين وفي ميدان الدفاع عنه ضدّ شـبهات الأصدقاء الجاهلين، ومن أولئك العلماء الذين لهم القدح المعلّى في هذه السـبيل الأخيرة: العلامة الإمام، سيد الفقهاء، يوسف بن يحيى، الشهير بالبويطي، مؤلف المختصر في الفقه، الذي اقتبسه من كلام الشافعي، وهو صاحب الإمـام وأعلم أصحابه، ومـن قام مقامه في الـدرس والافتاء بعد وفاته بوصية من الإمام نفسه[2].

---

(١) انظر: الاستذكار (٩/ ٢٢٤).

(٢) تهذيب (١١: ٤٢٧) ووفيـات (٢: ٣٤٦)، وتاريخ بغداد (١٤: ٢٩٩) والانتقاء (١٠٩) ومفتاح السعادة (٢: ١٦٨) وطبقات السبكي (١: ٢٧٥).

كان البويطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إمامًا في العلـــم، قدوة في العمل، وكان عابدًا مجتهدًا زاهدًا ربانيًّا متهجدًا، صالحًا، متنسكًا، دائم الذكر والعكوف على الفقه، كبير القدير، وقد شـــاء الله تعالـــى أن يكون أحد المبتلين في محنة خلق القرآن الشهيرة؛ إذ سعى به بعض الوشاة عند ملأ الخليفة وهم يومئذ رءوس الفتنـــة، حتى كتب فيه ابن أبي دؤاد إلى والـــي مصر، فامتحنه في القول بخلق القرآن، وبالطبع فإن البويطي لم يجبهم إلى ما أرادوه، بل قال ما يريد منه علمه أن يقوله، وكيف يجيبهم بما فيه رضاهم وهو يسخط الله وهو من هو، وكان من فضل الله تعالى على البويطي أن اعترضت ســـبيله عقبـــات ظاهرها التخفيف عنه وباطنها غير ذلك لتظهر لنا معدنه الحقيقي الأصيل وتعلّمنا من موقفه ذاك الدروس العليا في واجب أداء الأمانة.

فمن ذلك أن والي مصر حينها كان حسن الرأي في البويطي، فدعاه وقال له: يـــا إمامنا، قل ما يرجونه فيما بيني وبينـــك وأنا أكتب إليهم به فيكفون عنك ولا يعودون إلى سؤالك، ها هي النجاة تأتي البويطي على طبق من ذهب، فما عليه إلا أن يوافق الوالي على ما يقترح وعلى الوالي بقية الأمور، صياغة الرد، وكتابته، وختمه، وحمله بالبريد، وإيصاله إلى عاصمـــة الدولة في بلاط الخليفة ليطلع عليـــه المعنيّون بالأمر وينتهي البلاء كما لو لم يأت، هذا كان الوالي يقترح، فبم رد هو عليه؟

قـــال البويطي: إنه يقتدي بي مئة ألف، ولا يدرون المعنى يعني ما أقصده أنا وأنت، قال البويطي ذلك وقد كان أمر أن يحمل إلى بغداد في أربعين رطل حديد.

وبالفعل لما لم يرضهم نفّذ ذلك فيه، فيا ويح أولئك النفر الذين وشوا به ونموا عليه، وقد كان هو يشكوهم إلى الله تعالى ويقول: برئ الناس من دمي إلا ثلاثة: فـلان وفلان وفلان، وفي ذلك درس لأولي الألباب، فليحذر العاقل من السـعي بغيره إلـى الهلكة فإنه يبوء بإثمه ويكون من أصحاب النّار بسـهمه في قتل أخيـه، فهل يعقلون؟ وربما كان ذلك من تحاسـد الأقران والزملاء وبئس الصنيع، ولله در الذهبي إذ علّق على ذلك الخبر بقوله: اسـتفق، ويحك، وسـل ربك العافية، فكلام الأقران بعضهم في بعض أمر عجيب، وقع فيه سادة، فرحم الله الجميع.

لقد كان البويطي وليًّا من أوليـاء الله المبطنين للخير العاملين به في السـرّ، وقد أطلقت المحنة ألسنة النّاس بالشـهادة له، فحدّث عنه خلانه وأصدقاؤه وجيرانه بأخبار هي غاية في العجب.

يقول جاره أبو الوليد ابن أبـي الجارود: كان البويطي جاري فما كنت أنتبه ساعة من الليل إلا سمعته يقرأ ويصلي.

ويقول صديقه الربيع بن سـليمان: كان البويطي أبدًا يحرك شفتيه بذكر الله تعالى، وما رأيت أحدًا أنزع بحجة من كتاب الله تعالى من أبي يعقوب البويطي.

وقال الناس أعظم من ذلك، قالوا: إنه كان يصوم، ويتلو غالبًا في اليوم والليلة ختمة، مع صنائع المعروف المتنوعة التي كان يقدّمها إلى مختلف الناس.

لله أعمـــال الرّخاء هذه، إنها لتظهر وحدها في الوقت المناســب وتشيع دون عناء، وتثبت صاحبها في وقت الشدّة دون تردد.

وقــد ثبت البويطي في هذه المحنة ثباتًــا عظيمًا كان مضرب المثل للعلماء، وأسوة حسنة لكل من أتى بعده ووقع في المحن مثله.

أمر بالبويطي أن يحمل إلى بغداد على هيئة شــاقة، أركب على بغل، وربط في عنقه غلٌّ، وفي رجليه قيدٌ وبينه وبين الغل سلسلة فيها لَبِنَــةٌ (طوبة) وزنها أربعون رطلًا، وللقــارئ الكريم أن يتخيّل حجم ذلــك البلاء مع طول المســافة بين مصر وبغــداد، وقد أظهر رَحِمَهُ ٱللَّهُ اصطبــارًا وثباتًا، بل كان وهو يعاني هذه المشــقة وينوء بهذه الأثقال يدعو مرافقيه في الرحلة إلى الله ويحذّرهم أن يصدّقوا ترّهات القوم وادّعاءاتهم على القرآن، ويســوق لهم الحجــج والبراهين المؤيدة لأقــوال المبتلين الثابتين في المحنة الرافضين لموالاة الســلطة على الباطل والإفك الــذي تؤيده بقوة الســياط، وكان من بعض حججه قوله: «إنما خلق الله الخلق بـ«كن» فإذا كانت مخلوقة فكأن مخلوقًا خُلق بمخلوق، ولئن دخلت عليه لأَصْدُقَنّه - يعني الخليفة الواثق -، ولأموتــن في حديدي هذا حتى يأتي قومٌ يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم»[1].

أوه!

---

(١) مناقب الإمام أحمد (٣٩٧).

هذه هي الرســالة التي يحرص البويطي علــى أن تبلغ الأجيال، ومضمونها الحفاظ على هذا الدين مهما تكن التضحيات شديدة، بالغة ما بلغت، قتلًا بالسيف، أو موتًا بين الجدران، أو رميًا بالرصاص!

فدين الله أغلى من كلّ شيء.

وصل البويطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى بغداد، وأودع السجن بقيوده، لم تفكّ عنه، ولبث في السجن مدة، فكان إذا سمع المؤذن وهو في السجن يوم الجمعة اغتســل ولبس ثيابه ومشــى حتى يبلغ باب السجن، فيقول له السجان: أين تريد؟ فيقول: أجيب داعي الله، فيقول: ارجع عافاك الله، فيقول أبو يعقوب: اللهم إنك تعلم أني قد أجبت داعيك فمنعوني[1].

ويحك يا من تزهد في صلاة الجماعة! أرأيت إلى حرص الكرام؟

ما ونى البويطي في محبســه كما كان في ســيره ذاك الشاق يدعو إلى الله تعالى كل من رآه، المســجونين، والســجانين، بل كان يكاتب إخوانه الذين في الخارج يوصيهــم بالحق ويوصيهم بالصبر، إي والله بالصبر، قال الربيع بن ســليمان المرادي: كتب إليّ أبو يعقوب البويطي أن اصبر نفســك للغرباء، وحسّــن خلقك لأهل حلقتك، فإنّي لم أزل أسمع الشافعي يقول كثيرًا ويتمثل:

أهيــن لهــم نفســي وأكرمهــا بهــم

ولــن تكــرم النفــس التــي لا تهينها

(١) الوافي بالوفيات (٢٩/ ١٦٥).

وقد شاء الله تعالى أن يتوفى البويطي، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في قيده، مسجونًا، بالعراق، في سنة ٢٣١هـ أو بعدها بسنة، وكانت وفاته يوم الجمعة قبل الصلاة، تلك التي كان يتهيأ لها بما ذكرناه، فسبحان الذي يختم للمرء بما عاش عليه.





كيف أبتدئ لك الحكاية؟!

من عند الولدين الذين صارا إماميـــن عظيمين، أم من عند الوالد الذي كان ســـببًا في غرس شـــجرة العظمة هذه التي عـــلا عليها ذلكما الولدان؟

قصّـــة من مئات القصص التي تدور يوميًّا فـــي دوّامة الدنيا، لكن كان معها شـــيء آخر إضافي لم يجعلها تنطمس كما انطمســـت وتنسى ككل القصص المشابهة..

لم تكن الأرض التي غرســـت فيها الشـــجرة بورًا ولم تسق بماء آسن، ولكنها كانت أرضًا طيبة وســـقيت بماء عذب مبارك فآتت أكلها بإذن ربها طيبًا شهيًّا..

كانت البداية عند ذلكـــم الوالد الطيب «محمـــد» الذي كان يعيش في بلاد نائية، لكنها بالخير عامرة، يعمل في غزل الصوف، ليكســـب رزقه ويكفـــي بيته، مقتنعًا بما تـــدره عليه صنعته من رزق ضئيـــل، تلك القناعة التي تثمرها طاعته لربه واســـتقامته على طريقـــه، وتعلقه بأهل الله في هذا الطريق، علمًا وســـلوكًا، وقد رزق «محمد» بولدين رأى فيهما مســـتقبله فرباهما أحســـن التربية ونذرهما للعلم، وكان أمل «محمد» يكبر مع الأيام

كلما رأى ولديــه يتقدمان في حفظ القرآن وتلقي العلوم الشــرعية، ممنيًا نفســه بيوم يرى فيه نبوغهما في فروعها المختلفة، لكن كان لله قدر آخر، فنزل بمحمد المرض وكان داؤه عضالًا فلم يجزع ولم يسخط، وكان شغله الشاغل تحقيق أمله في ولديه، فجعل ذلك موضع تفكيره الأول والأخير، ثم اهتدى في نهاية المطاف إلى أمرٍ كان من توفيق الله له، فماذا صنع؟

لقد بحث فــي أصدقائه عن مخلص وفيّ أمين فأســرّ إليه بأمله، ورجاه أن يكمل في طريق تحقيقه من بعده، وأمدّه بكل ما ادّخره لذلك الهــدف من مال وأباحه كل ما في بيته من أثاث، وزوده قبل ذلك وبعده وصاياه، وكان ذلك قبل وفاته بقليل، إذ رحل بعدها فكانت تلك الوصيّة وصيّة مودّع!

ماذا كان من شأن الرجل مع الولدين؟ وما كانت عاقبتهما؟

لقد ثبت حــدْس «محمد» ذلك الرجل الطيّب ووفّق في اختياره، فقد اجتهــد صديقه في تنفيذ وصيته وقام علــى تربية ولديه ورعايتهما وتعليمهما، على خير وجه، وكان رجلًا فقيرًا يتعذر عليه القيام برعايتهما والإنفاق عليهما، فإذ نفد ما تركه لهما أبوهما من المال أســقط في يده ولم يدرِ ماذا يفعل؟!

وفكّر العبد الصالح الذي تحمّــل الأمانة في طريقة يتم بها وفاءه بوعــده لصديقه وينصح بهــا لولديه، فكان أن فكر فــي إيداعهما لدى إحدى المدارس الإسلاميّة التي كانت منتشرة بقوّة وقتها، والتي كانت تكفل طلاب العلم فيها، فيعيشان منها ويتعلمان.

وحين فكّر في تنفيذ ذلك جمعهما ذات ساعة فحدثهما في الأمر، قال لهما: اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من الفقر والتجريد لا مال لي فأواسيكما به، وأصلح ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة فإنكما من طلبة العلم فيحصل لكما قوت يعينكما على طريقكما.

وكان جواب الأخوين الصغيرين على كلام ذلك العم الكريم الوفيّ حسنًا، وشكراه بحسب ما تيسّر لهما من القول، وتقدما معه ليلحقهما بمدرسة إسلامية من تلك المدارس.

هناك - في تلك المدرسة - استقرّ «محمد»، و«أحمد»، كان الأول «محمد» نعم، كاسم أبيه وجده، فهو «محمد» وأبوه «محمد» وجده «محمد».

وكان ذلك الصديق الذي رزقاه ورزقه والدهما بنية صالحة وطوية خالصة هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهما، وبلوغها منزلة رفيعة جعلت أولهما «محمد» يتبوّأ منزلة «حجة الإسلام».

وصار برأي أساتذته: «بحر مغدق»!

وبرأي كثيرين هو: « مجدد القرن الخامس الهجري».

وألف كتابًا في حضرة بعض الأجلاء من أئمة الإسلام الكبار، وكان ذلك الكتاب اختصارًا لكتاب أستاذه ذاك، فلما اطلع الأستاذ على المختصَر قال له: «دفنتني وأنا حيٌّ»، لما رأى من تفوقه وحسن صنيعه مما يدعو الناس للإقبال على المختصر وترك الأصل!

ولهذا ينظر كثيرون إلى «محمد» ويصنّفونه كأعجب شخصية في تاريخ الإسلام، بما اجتمع له من قوّة ذكاء وصفاء سريرة وتعدد ملكات وثراء وتنوع في المجالات.

ولا غـرو فقد كانـت للفتى اليافـع ثمانية وعشـرون عامًا فقط واستطاع أن يحقق شهرة واسعة في حواضر الإسلام يومئذ بعد أن ناظر عددًا من الأئمة والعلماء وأفحم الخصوم والمنافسـين حتى اعترفوا له بالعلم والفضل، فارتفع بذلك ذكره وذاع صيته، وطار اسمه في الآفاق، فتولى رئاسـة أعظم مدرسـة في بلاد الإسـلام يومئذ وهي المدرسة النظامية ببغداد.

هذا الولد الـذي صار إمامًـا وهذه البذرة التي صارت شـجرة كبيـرة وعظيمة هو - كما ألمحت السـطور-: الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

وإذ قد أفصحت عن الاسم الكريم فلن أزيد في ذكر المناقب ولن أعيد على المسامع الدرجات العليّة التي تبوأها صاحبه، وأعدد الأيادي العظيمة التي له في عنق كل مشـتغل بالعلم في كل فن من الفنون، فقد باتت معلومة تحدث هي عن نفسها بنفسها.

هذا هو أحد اليتيمين، ولم يكن أخوه «أحمد» بأقل شـهرة منه في فنّه ومجال تخصصه وهو الدعوة والإرشاد والدلالة على طريق الهداية إلى رب العباد.

فتأمّل أيها الوالد الكريـم أيّ مجد حصّله ذلك الفقير الذي مات

في البلد النائية «طـوس» بولديه اليتيمين الفقيريـن، وما جرّا عليه من الخير والرفعة والحسنات والثواب؟

أيّ نيـة توفّرت لذلك الوالد حتى تكون تلك نتيجتها؟ وأي طوية بذرها في قلبه وضمّ عليها صدره ووفر لها من مائه ما روى به عطشـها وحرسها من الموبقات والمهلكات أن تقضي عليها حتى كانت شجرته عظيمة بهذا المقدار وكانت تلك ثمارها وحصادها؟

تفكّر في ذلك كلّه، ثم لا تحسـبنّ ذلك كله مستحيل التكرار فليس هذا واقعًا مثلًا لنبيّ أو رسـول بل هو لبشر مثلك، ربما لم تتوفّر له نصف إمكانياتك، فأعدّ عدتك وابحث أنت الآخر عن طريقك.

ذلـك أيها الوالد الكريم ما أردت أن يكون أول حديثي معك قبل أن تشرع رايتك للمسير أن تخلص النية لله، وتسير متوكلًا في كل أمرك عليه، ومتجردًا من كل حول وطول إلى حوله وقوته وحده لا شـريك له، سائلًا وضارعًا أن يبلغك غايتك، وأن يوصلك إلى هدفك.

فإذا عقلت هذا وفهمته انتقلت بك للحديث عن حوارك مع ولدك فيم يكون وكيف يكـون، وأول ذلك بلا ريب حديثك معه عن الإيمان فالإيمان هو الحياة[1].

---

(١) راجع فـي حياة الإمام الغزالي وأخيه: أعلام المسـلمين الإمام الغزالي، صالح أحمد الشامي، دار القلم، دمشق، أبو حامد الغزالي المفكر الثائر، محمد الصادق عرجون، الدار القومية للطباعة والنشـر، مصر. حجة الإسـلام الإمام الغزالي، مأمون غريب، مركز الكتاب للنشر. معجم الفلاسفة ص ٤٣١.

حياتنا.. في خدمة الدين

حضرتُ مرّاتٍ عديدةً خطبًا ومحاضراتٍ لفضيلة الشيخ محمد صفوت نور الدين -رحمه الله تعالى-.. فرأيت رجلًا جميل الخَلق، سمح الخُلق.. هادئ الطباع، ساكن النّفس.. بسّام المحيا، رصين العلم.. بادي الصلاح، ظاهر الوقار.. ملتزم المنهج، واضح الأسلوب.. بارع الحوار، مرتب الأفكار.

كان الشيخ صفوت نور الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتكلّم في هدوء عن غير عجز أو شيخوخة، بل يدفعه إلى ذلك الغوص في أعماق الكلام يستخرج لآلئه ودرره، ويبرز الآيات والبينات على ما يشير إليه من كنوز.

وكان الشيخ الكبير -رحمه الله رحمة واسعة- آية في هذا المجال، وأشهد لقد سمعت منه في محاضراته كشرح «حديث أصحاب الغار»، وغيره فوائد وعبر، أنبهر لها إلى اليوم بشدّة وقد مرّ على هذا الحدث ١٥ سنة!

ومثل ذلك يستطيع المرء قوله في سلسلته الأشهر: «حفظ الله للدين»، وفي سائر إنتاج الرجل الثريّ.

ولد الشيخ محمد صفوت نور الدين أحمد مرسي في ٢١ رجب ١٣٦٥هـ الموافق ٢٠/ ٦/ ١٩٤٣م بقرية الملايقة، مركز بلبيس، إحدى

مراكز محافظة الشرقية في مصر، ونشـأ في أسرة متدينة، وحفظ القرآن فـي صغره، رغم أنه لم يـك أزهريًّا وقتها، وكذلك لـم يلتحق بالأزهر بعدها، وقد كان عمّه فضيلة الشـيخ عبد الله أحمد مرسي، من رجالات أنصار السـنّة المحمديّة فـي ناحية بلبيس ورائد الدعوة السـلفية فيها، وكذلك والده وكان يترأس فرع جماعة أنصار السـنة المحمدية بمدينة بلبيـس فترةً، وكان يعمل بالتدريس وعرف عنه الحزم والقيام على تربية الأجيال، فكان لهذا أثرًا في توجّه الفتى «محمد» إلى فكر الجماعة وهو في المرحلـة الإعدادية، وهناك لازم دعاتها وعلماءها واسـتفاد منهم، ودرس العلوم الشرعية على أيديهم؛ إذ يسّر الله له من علمائها ودعاتها:

فضيلة الشـيخ محمد علي عبد الرحيم رئيس جمعية أنصار السنة المحمدية، والعالم الأزهري السـلفيّ الشـهير الدكتـور محمد خليل هرّاس، صاحب الشـروح المتميزة والتقييدات النافعة على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وفضيلة الشيخ العلامة عبد الرحمن الوكيل، صاحب البيان الرصين والعلم الرزين، وفضيلة الشـيخ عبد الرزاق عفيفي الذي تولى منصب نائب رئيس هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية، إلى آخرين كُثُر من علماء أنصار السـنّة المباركين، إضافة إلى معاصرته الكبار أمثال الشيوخ: محمد حامد، وجميل غازي وغيرهما.

وبهذا جمع «محمد صفوت» العلم الشـرعي والمدنيّ معًا، فإلي جانب العلوم الشـرعية التـي حصّلها على أيدي هـؤلاء النفر الكرام، قد مضى في دراسـته المدنية حتى وصل إلـى كلية المعلمين، وحصل

منها على شـــهادة البكالوريوس في العلـــوم والتربية في العام ١٩٦٤م، واشتغل بهذا المؤهّل في التدريس، وترقى في درجاته الوظيفية إلى أن أصبح «موجّه أول» في تخصصه بوزارة التربية والتعليم المصرية.

جمع الشـــيخ العلمين لا كجامع عاديّ بل برع فيهما، ولقّح كلاً منهمـــا بالآخر، فاجتمـــع لديه مزيج كان له أثر واضح فـــي كتاباته التي زخرت بها مجلـــة التوحيد في ثلاثة أبواب منها؛ «في الافتتاحية، وباب السنّة، وباب الرد على أســـئلة القرّاء»، وكان للتدريس أثر في احتكاكه بالنشء وتنمية خبرته بطرائق التربية وإفادته حسن التوجيه.

أذكر أننا ونحن طلاب حزاورة كنا نسمع إلى شيوخنا في القاهرة -أوائل ما وفدنـــا إليها طلابًا في جامعة الأزهر- فكنا نشـــهد -كثيرًا- الصراع الحامي بين بعضهم في مســـائل مشـــتهرة بعضها لا يزال يشغل الســـاحة إلى اليوم؛ فاتصلنا على فضيلة الشـــيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مكتبه بمقر جماعة أنصار الســـنّة المحمديّة نســـأله النصح في ذلك وكان الشـــيخ يستقبل زواره ويجيب مستفتيه عبر الهاتف يوم الأحد والأربعاء على ما أذكر، فكان ردّ الشـــيخ الكريم علينا تربية تركت أثرها فيّ إلى اليوم ولا زالت تجد منّي اســـتجابة لها؛ إذ قال لي ولإخواني -وقد عرفناه بأنفسنا كطلاب في الجامعة الأزهرية، حريصين على تلقّي العلم الشرعيّ على طريقة السّلف وطرحنا بين يديه أسئلتنا فقال بعمق فكره المعهود:

«لا يزال أهل العلم يختلفون في مسائل بينهم أخذًا وردًّا، والطالب الذكيّ هو من يسمع لشيوخه أجمع ويعير اهتمامه إلى كل مفيد يقولونه،

وليس من بين هذا المفيد أن يشغل نفسه بالقيل والقال، فوصيتي إليكم أن تستفيدوا -في جانب العلم- من كلّ من يتحدّث فيه بدليل وفهم أصيل، وأما الصراعات الجانبية في بعض المسائل التي تعتبر مسائل فرعية قد وقع في مثلها الخلاف بين العلماء قديمًا وسيظل، فلا تنشغلوا بها ولا تضيعوا أوقاتكم فيها».

كانت كلمات الشيخ الكريم تنطبع في فؤادي وأنا أسمعها كحبات المطر التي صادفت أرضًا هامدة فاهتزت وربت.. والشيخ في مجال التربية صاحب باع طويل يحتاج إلى من يقف بخصوصه على تراثه ويستخرجه منه، ومن رسائله المعروفة: «التربية بين الأصالة والتجديد».

ولقد سعيت -يحملني الشوق- إلى لقاء العالم الجليل في مكتبه بالمركز العام -قولة، عابدين- وأنا في مرحلة الجامعة مرّتين؛ يشجعني على ذلك ما أراه من أدبه الجم، وتواضعه الشديد، لكني لم أوفّق للقائه في المرتين كلتيهما؛ بسبب سفره المتكرّر في رحلات الدعوة في أقطار مصر وخارجها.. فقد امتد نشاط الشيخ الدعوي المبارك إلى خارج مصر مشاركًا في المؤتمرات والندوات وإلقاء المحاضرات في هولندا وكندا وبلجيكا وغيرها من مختلف أنحاء العالم، ثم توّج ذلك النشاط الدعويّ بافتتاح فرعٍ لأنصار السنّة المحمديّة في أمريكا.

لقد كان «الشيخ صفوت» يهتم بقضايا ومشاكل المسلمين في الغرب اهتمامًا بالغًا -إلى جوار اهتمامه بنشر الدعوة في ربوع مصر، وآثاره في كل ناحية منها شاهدة؛ يقول أحد تلامذته ومرافقيه -في أحد

رحلاته إلى أمريكا- وهو الشيخ محمد حسان: «لقد كنت أرى الشيخ يحمل مجلة التوحيد ويوزّعها بنفسه على المسلمين في الخارج؛ لشدّة حرصه على أن تصلهم دعوة التوحيد الصافية النقيّة»، وكانت همته في ذلك تثير الإعجاب وتدفع على الجد والعمل، ولهذا يقول التلميذ الشيخ محمد حسان عن أستاذه الراحل:

«والله لقد كانت همتي تعلو كلما جالست الشيخ وتتبعت أحواله، وكل طلاب الشيخ ومحبيه يعلمون يقينًا أنه كان لا يعرف الكلل والملل فمن مسجد إلى مسجد، ليلقي درسًا، ومن بيت إلى بيت ليحل مشكلة أو يصلح بين متخاصمين»..

وقال عنه الدكتور علي السالوس: «كان لي شرف الاشتراك مع الشيخ في لقاءات ومؤتمرات داخل مصر وخارجها في أمريكا فكان نعم المحاضر، ونعم المناقش، ونعم المجادل بالحق والتي هي أحسن، في سمت العلماء وتواضعهم وهدوئهم يتحدث ويناقش ويجادل لم أره مرة يجترئ على الفتيا بغير علم، بل دائمًا يسند أقواله بالأدلة المعتبرة، مستمسكًا بالكتاب والسنة، وما رأيته مرة يغضب لنفسه».

إن آخر مؤتمر -كان قبل وفاته، رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في نصرة قضايا الإسلام برياسته هو المؤتمر الذي عقد بالمركز الدولي لدعاة التوحيد والسنة بمسجد العزيز بالله، وقد انتهت أعماله قبل سفره إلى السعودية بيومين تقريبًا، وكان شعار المؤتمر (القدس).. ولعل في كتابه: «المسجد الأقصى ودعوة الرسل» برهان ثانٍ على تحرّق الرجل الكبير على قضايا المسلمين.

لقد كان العالم الكبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ مثالًا في الجلد على طريق الدعوة.. والحرص على الوصول بها وبلاغها - نحسبه والله تعالى حسيبه، ولا نزكي على الله أحدًا.

ولئن فاتني لقاؤه في مكتبه مرتين إلا أنّي عوّضت مكان ذلك في لقاءين -غير محاضراته وخطبه الجماهيرية- انفردت به فيهما فسلمت عليه وطرحت بعض الأسـئلة بين يديه، واسـتمعت إلى أجوبة الرجل الحكيم ومعها دعواته لي بالتوفيق في الحياة العلمية والحياة العامّة، ومع ذلك نصحه المعهود بالاستدامة على الخير ولزوم الاستقامة.. فوجدته كما عرفته باسـم الوجه، رحـب الصدر، كثير الـود، ظاهر التواضع، ولمست شاهدًا على ما كنت سمعت من قول الشيخ لإخوانه: «إنّ كلمة الرئيس العام ليست منصبًا علميًّا وإنما هي ترتيب إداري لينتظم العمل بين أفراد الجماعة».

يريـد بذلك أن يقول: نحن سـواء فـلا تنظروا إلـى المناصب والدرجات وإنما ركـزوا على العمل والإنجـازات، ومن ثمّ تطوّرت الدعوة في حياة العالم الفاضل وتوسّـعت حتى شملت أرجاء فسيحة وعددًا وفيرًا من قرى الأرض المصريّة ومدنها.

ويقول عن ذلك الشـيخ صالح السـدلان: «الشيخ صفوت نور الدين سابع رئيس لأنصار السـنة المحمدية بمصر، ودامت رئاسته لها ما يزيد علي عشـرة أعوام شهدت الجماعة خلالها ازدهارًا غير مسبوق من التنظيم والعمل المؤسـس الناجح، فسـاهم مساهمة فعالة في نشر

دعوة التوحيد في مصر والعالم الإسلامي، وأرسي قواعد الجماعة على المنهج السلفي الصحيح منهج أهل السنة والجماعة في إطار ضوابط لم تتعارض مع الحكومات مما كتب لدعوته الاستمرار والنجاح».

وبعد، فحياة الشيخ مليئة بالعظات والعبر ولا تكفيها -أبدًا- هذه العجالة، للاستقصاء، لكن النصيحة الأجدر بالذكر والذكرى ما قاله الشيخ نفسه -وكأنه يعني نفسه-: «علينا أن نجتمع حول من بقي من العلماء لطلب علمهم، فلا نضيع أعمارهم ثم نبكي عليهم بعد موتهم، وعلينا أن نسأل عمن ورث علم من مات منهم، ولا نظن أن العلم مجرد نص محفوظ في الكتب، فإن أهل الكتاب لم تنفعهم كتبهم التي بين أيديهم فقد حرفوا بعضها وأهملوا بقيتها، فلم يبق لهم من الدين شيء، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

رحم الله فضيلة الشيخ محمد صفوت نور الدين مرسي رحمة واسعة ذلك الرجل صاحب الهمة العالية في الدعوة إلى الله.. والذي اختار الله لقاءه بعد صلاة الجمعة، والفراغ من العمرة، في البلد الحرام، وصلي عليه صلاة الجنازة بعد صلاة المغرب في الحرم الشريف، وكان ذلك في ١٣ من شهر رجب ١٤٢٣هـ الموافق ١٩/ ٩/ ٢٠٠٢م.



ما زال أهل العلـــم والصلاح في كل زمان ومكان يقفون في وجه الطغاة والظالمين، يردُّونهـــم عن الدين أن ينتهكـــوا حرُماتِه، أو يَلِغُوا بجَورهم وعدوانهم في حياضه، ويدفعونهم عن عباد الله أن يســـتطيلوا في أعراضهم وأموالهم وينتهكوا حرماتهم.

وقد لقي أهل العلم في سبيل ذلك أذًى شديدًا وعنتًا، لو كان بأحد أن يعتذر مِن ضرٍّ نزل به ويبرِّر لنفسه الهروب والتخلِّي عن قضية الدين، لكانوا هم بهذا العذر أَولـــى وأحرى، لكنهم صبَروا وصابروا ورابطوا؛ لما يعلمون من أهميـــة موقفهم وخطورة التنازل عنـــه، وأما البلاء في سبيله، فذلك أمرٌ هين في ســـبيل ما يبغون، وهو أيضًا ضريبة لا بد منها لكل ساعٍ في نصرة هذا الدين.

ومن فرســـان هذا الميدان «أبو الحســـن الزاهد»، واسمه بنان بن محمد بن حمدان بن سعد، المعروف بالحمَّال (ت٣١٠هـ)[1]، وموقفه مع ابـــن طولون حاكمِ مصـــر الظالم آيةٌ من آيات هـــذا الميدان، وكان العالم الجليل كبير القدر، لا يقبل من الدولة شـــيئًا، وكانت له -بسبب

(١) انظـــر أخباره في ســـير أعـــلام النبـــلاء (١٤/ ٤٨٨-٤٩٠)، وتاريخ الإســـلام (٢٣/ ٣٦٧)، والبداية والنهاية (١١/ ١٥٨-١٥٩).

هذا وغيره- جلالةٌ عجيبة عند الخاصة والعامة، وكان ابن طولون جبارًا عنيدًا، سفَّاكًا للدماء، أُحصي مَن قتلهم صبرًا، أو ماتوا في سجنه، فبلغوا ثمانية عشر ألفًا!

وموجز قصة أبي الحســن مــع ابن طولون أن عالِمنــا أنكر يومًا على ابن طولون شــيئًا من المنكرات، وأمــره بالمعروف، وبدلًا من أن يســتمع ابن طولون إلى كلام الإمام فيترك المنكــر، ويعمل بنصحه له في المعروف، أمر به فألقي بين يدي الأســد، وقصدُه من ذلك أن يفتك به الأســد، لكن ذلك الحيوان المفترس خالف طبيعته، فكان يَشُــمُّ أبا الحســن ويحجم عنه، ولم يجد الحراس بدًّا فرفعوا الرجل الصالح من بين يدي الأســد[1]، ومن يومها وقد عظمه النــاس جدًّا، وعرَفوا قدرَه، فكانت منحة، لا كما أرادها الجائر محنة، وكانت عطيَّة لا بليَّة.

وبذلك علا شأن أبي الحسن وارتفع واستمر في علوٍّ حتى آخر حياته.

يقول ابن يونس عن يوم وفاته - كما في السير؛ للذهبي -: «خرج في جنازته أكثر أهل مصر، وكان شيئًا عجبًا من ازدحام الخلائق»[2].

وقد شــغف الناس بمعرفة إحساس أبي الحســن وشعوره حين اقترب منه الأســد، فســأله بعضهم: كيف كان حالــك وأنت بين يدي الأســد؟ فقال: لم يكن عليَّ بأس، قد كنت أفكر في ســؤر السباع: أهو طاهر أم نجس؟

---

(١) السير (١٤/ ٤٨٨).

(٢) السير (١٤/ ٤٩٠).

للـــه درُّ هذا الرجل الكبير في مقامه، وإن لم يحفظ لنا التاريخ عنه شـــيئًا كثيرًا، غير إشاراتٍ يسيرة إلى زهده، واشـــتغاله بإسناد الحديث النبوي، وأنه كان مجـــاب الدعوة، وكانت له كرامـــات، وكفى بها من مقامات، ويكفي موقفه ذاك ينبئنا عن علاقة لا ريب فيها بين هذا العابد وبين ربِّه بُنيت على يقين تزول الشمُّ الراسيات وهو لا يتزحزح.

وقد كان الأمر الذي أنكره أبو الحسن على ابن طولون هو سماحه للنصارى بتعـــدِّي حدود الله في الدولة، حتى إنه -بنفســـه- أنزل أحد وزراء ابن طولون وكان نصرانيًّا عن فرســـه، وقال له: «لا تركب الخيل وغيِّر، كما هو مأخوذ عليكم في الذمة»[1].

وبنـــان الحمال أبو الحســـن رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أعلام التصوُّف السُّـــنِّي فـــي القرن الرابع الهجـــري، فقد صحب أبا القاســـم الجُنيد وغيره من المشايخ، وكان شيخ أبي الحســـين النوري، ولم يمنع ذلك الذهبي أن يقول في مدحه والثناء عليه - بما هو معروف عنه من إنصاف -: «الإمام المحدث الزاهد، شيخ الإسلام، ومن يُضرَب بعبادته المثل»[2].

ومن درر أقواله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن كان يســـرُّه ما يضرُّه، متى يُفلح؟»، «إن أفردتـــه بالربوبية أفردك بالعناية، والأمر بيدك؛ إن نصحت صافوك، وإن خلطت جافوك»، «الحر عبدٌ ما طمع، والعبد حرٌّ ما قنع»[3].

---

(١) تاريخ الإسلام (٢٣/ ٣٦٧).

(٢) السير (١٤/ ٤٨٨).

(٣) السير (١٤/ ٤٨٨).

وذكر إبراهيم بن عبدالرحمن: أن القاضي أبا عبيدالله احتال على بنان حتى ضربه سـبع درر، فقال: حبسك الله بكل درة سنة، فحبسه ابن طولون سبع سنين[1]، فكان الجزاء من جنس العمل.

وهكذا كان أسـلافنا جامعين بين العلم والعمل، وهو ما قصرت عنه همَّة الأخلاف، فبقوا في ذيل الحياة، رحم الله أبا الحسـن، ونفعنا بثباته، ورزقنا الأسوة به في أحواله.



(١) البداية والنهاية (١١/ ١٥٨-١٥٩)، وانظر الجزاء من جنس العمل (١/ ٤٣٠).



ترجم الإمامُ البخاريّ لوالده إسماعيل رَحِمَهُمَاٱللَّهُ فقال: «سمع أبي من مالك بن أنس، ورأى حمادَ بنَ زيد، وصافح ابنَ المبارك بكلتا يديه».

ولك أن تتأمّل طويلًا، في قوله: « ورأى حمّادَ بنَ زيد، وصافح ابنَ المبارك بكلتا يديه «، لقد كان البخاري رَحِمَهُٱللَّهُ قادرًا على أن يسرد شيئًا مطوّلًا من مناقب والده وهي كثيرة؛ فقد طلب والدُه العلم وتضلّع منه حتى إنّ المترجمين له ليخبرون أنّه استوت له تجارة عريضة ذات ربحٍ دارّ وفيرٍ أقسم على أنّه جميعه من حلال خالص ليس فيه أدنى شبهة، فإنه لما حضرته الوفاة دعا ابنه الإمام البخاري، وقال له: «يا بني! لقد تركت لك ألف ألف درهم -يعني مليون-، ما أعلم درهمًا فيه شبهة»، ومثل هذا لا يستقيم إلا لمن تعلّم العلم حتى جمع في قلبه شيئًا منه كثيرًا.

لكنّ البخاريّ -وهو ينتقي لوالده أفضلَ المناقب يختصر ترجمته- حسبما يقتضيه منهجه في التاريخ الكبير- فيقتصر على هؤلاء الكلمات:

« سمع أبي من مالك بن أنس...

ورأى حماد بن زيد...

وصافح ابن المبارك بكلتا يديه».

فقط، وهو شرف في نظر أمير المؤمنين الإمام البخاري، فما بالك بمن دونه؟!

كنت وأنا أعدّ هــذه القطوفَ عن حياة العلماء والشــيوخ الذين عرفتهــم أقدِّم رجلًا وأؤخِّر أخرى في تضمينها ترجمةً لفضيلة شــيخنا الدكتور المقرئ عباس المصري -رحمه الله تعالى-؛ ذلك أنّي عرفتُ الرجلَ الكبيرَ في مرحلــة متأخّرة جدًّا من حياته المباركة، في لقاء عابرٍ جمعني به لدقائق، وســرعان ما غادر لتمضي أيّام بعد هذا اللقاء فيقرع أسماعَنا نبأ وفاته، وأنا بعد لا أقدر الرجل قدرَه ولا أعرف حقّه العلميّ عن يقين، وما كان هنالك إلا حدسٌ وتخمينٌ من المســتمع الشابّ في المتحدّث الكبير أنّه من العلماء؛ أدرك ذلك صاحبُنا الشــابّ بما خبَره من سمت أولى العلم والإقراء، فلقد كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ باديَ الصلاح، ظاهرَ الخشــوع، واضحَ التواضع، كثيرَ الذكر، تلوح في وجهه وروحه أماراتُ التقى وعلاماتُ الإحسان.

لقد شــجعتني الكلماتُ التي قدّمتها عن ترجمة الإمام البخاريّ لوالده، ودفعتني إلى كتابة هذه الســطور عن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وسوّغ لي ذلك أنّي ســمعتُ الشــيخ يتحدّث بكلام الخير، ورأيتــه، وصافحته، وجالســته، وحيَّاني، وحييتــه، رحمه الله رحمة واســعة، فكانت تلك القطوف من حياته الزاهرة:

ولد «أبــو محمد عباس مصطفى أنور إبراهيم المصري» بالقاهرة في ١٨/ شــعبان/ ١٣٦٤هـ - الموافق ٢٧/ ٧/ ١٩٤٥م، وعاش حياة

عاديّة لا يميّزه فيها شـــيء عن غيره حتى بلـــغ الثلاثين من عمره، وفيها اشتعلت جذوة نشاطه الديني فأقبل على كتاب الله تعالى وعكف عليه قراءة وحفظًـــا وإتقانًا فأنعم الله به عليـــه، وكان بعد إتمام الحفظ يفرّغ من يومه أوقاتًا كثيرة لتثبيت الحفـــظ حتى صار من الحافظين المتقنين لكتاب الله.

ولم تقف به نفســـه الجادّة وهمّته العالية عنـــد هذا الحدّ، فانطلق يروي ظمأها بكتاب الله فجالس أفاضل المقرئين ليتلقّى منهم كالشيخ أحمد مصطفى أبو الحسن، والشيخ أحمد عبد العزيز الزيات، والشيخ عبد الحكيم عبد اللطيف، والشيخ محمد عبد الحميد عبد الله، والشيخ محمد عيد عابدين، وطار إلى فضيلة الشـــيخ بكري الطرابيشي - عليه رحمة الله - ليقرأ عليه في مدينة دمشق بسوريا، مرتين.

ولعمر اللـــه ! إنّ هذه عزيمة قويّة أن يتحقق مثل هذا الإنجاز، في مثل هذه الســـنّ، وقبل هذا هو عطاء الله الوهّـــاب على ما اطّلع من نيّة عبده، فاصطفاه واجتباه وحباه.

التحق الشابّ «عبّاس المصريّ» أول عهده بكلية الشرطة وتخرّج بها وعيّن في أكاديميتها، وأثناء ذلك حصل على الماجستير ثم الدكتوراه فـــي الحقوق، ودرّس فـــي جامعات عدّة، داخل مصـــر وخارجها، إلا أنّ الرجلَ «المصطفى» قد رغبت نفســـه عن ذلـــك كلّه، وتاقت لتعليم كتاب الله وإقرائه، ففرّغ نفســـه لذلك تمامًا، وخلّى مناصبَ الدنيا وراء ظهره، ومن كليّة الشرطة حيث يعلّم الأمن والانضباط انتقل إلى تدريس

القرآن الكريم وضبط القراءات، فشـغل القرآنُ -الذي درّسه محتسبًا- كلَّ حياته وملأ عليه جميع أوقاته، وقد شـهد له كلّ الذين شرّفهم الله بالقراءة عليه والجلوس بين يديه بالإتقان إلى جوار صفات أهل القرآن الحسَـنَة؛ الصبر، والذكر، والبذل، والكرم، والحفاظ على وقت العلم وطلابه، وعلوّ الهمّة، وتلك لعمر الله صفات المحسنين، نسأل الله أن يكون الشيخ منهم وأن يبوّئه منازلهم.

كان «الشـيخ عبـاس المصـري رَحِمَهُ ٱللَّهُ» مهمومًا بشـئون الأمّة الإسلامية، ساعيًا في نصرة قضيتها، باذلًا لها من وقته ونفسه وماله، وقد كانـت المرّة التي التقيته فيها يتباحث مع بعض أهل الخير ممن يقطنون في منطقة عشـوائية داخل القاهرة؛ يريد أن يؤسّس لهم مجمّعًا إسلاميًّا يقوم علـى جمعهم فيه لأداء الصـلاة وتعلّم الدّيـن، ويجمع أبناءهم ونساءهم على حفظ القرآن والتنشئة الإسلاميّة الصحيحة.

ولقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يكره البدَع وما دخل الإسلام من غرائب ليست منه في شيء، وإن تشبث بها المسلمون وزعموها من الإسلام؛ أذكر أنّ أهلَ الحيّ الذين قصدهم ليبني هذا «الصرح الإسلامي» في منطقتهم -وقد أخبرهم بما ينوي فعله- سـألوه أن يجعل في خطّته لبناء المجمع ذي الأدوار العشرة دورًا للمناسبات يقيمون فيها الأفراح ويتقبلون فيها التعزية ! فرفض أشد الرفض، وقال: هذا ليس من الإسلام.

وهذه أخلاق رجلٍ يتسنّن باتّباع المصطفى ﷺ، وكيف لا؟ وهو الذي أقدم قبل ذلك على تقديم اسـتقالته إلى كلية الشرطة حتى يتمكن من إطلاق لحيته والاقتداء بالنّبيّ ﷺ ويربّي أبناءه على ذلك، وقد كان.

لقد كان «الدكتور عباس المصري -رحمه الله تعالى-» من الأغنياء، لكنّه مع ذلك كان من الزهّاد المعدود زهدهم في الغرائب والفرائد بين أهل عصره، وهذا هو الزهد الحقيقي؛ إذ هو يملك ويزهد فيما يملك، فالرجل الكبير الذي يملك الفيلا ومزرعة حولها اختار كلما ذهب إلى هناك أن يقيم في كوخ صغير في أطرافها، يتلو فيه القرآن بصوته النقيّ العذب، ويردّد داخله ذكر الله الذي ما كان يفارق لسانه في كلّ الأحوال.

وكان «عباس المصري الأستاذ الجامعيّ، والشيخ المقرئ، والضابط الأكاديمي» متواضعًا شديد التواضع لطلابه، لا يستنكف أن يخدم ضيوفَه بأن يحملَ بنفسه -ومعه زوجُه الكريم- الطعامَ إليهم، وأن يحملهم في سيّارته غادين ورائحين.

وكان «فضيلة الشيخ المقرئ عباس المصريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ» يسكن إلى جوارنا في حيّ راقٍ من أحياء القاهرة -وهو حيّ مدينة نصر- وكان مسجدُه عامرًا بطائفتين من النّاس: أهل التمدّن، الحضريّون، من الطبقة العُليا، من سكّان المنطقة التي يقيم فيها، والأخرى القرويّون البُسطاء الذين جاءوا يسعَون على معايشهم وسط هذه البيئة وقدّر الله لهم لقيا الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وما أسعده من قدَر ! وما أحلاها من لقيا !

ولقد رأيت شاهدًا من هؤلاء وهؤلاء ممّن حباهم الله بمعرفة الشيخ والاحتكاك به وأسعدهم الله بالجلوس معه على مائدة القرآن؛ اجتذبهم الشيخ إلى رحاب الكتاب الكريم بحسن بيانه، وطيب معشره،

وجميل موعظته، وبشاشة وجهه، فأمّا المدنيّ فلن تخطئ عينك أن تراه اليوم ليلا ونهارًا يقرئ المصريين والوافدين الراغبين في الحظوة بإجازة القرآن والارتباط بشرف الانتساب إلى أهله، ستراه في المسجد وغيره، يقــرئ، يبتغي بذلك الأجــر والثواب من الله، وكم مــن مدنيّ مثله قد تلقّى القرآن عن «فضيلة الشيخ»، ولقّاه غيره، فتلامذة الشيخ في جنبات الإسلام الواسعة كثرٌ بفضل الله، يقرئون.

وتشــخص أمام ناظريّ الآن صورة رجلٍ ريفي بسيط، خرج من الرّيف -من أرض الفيّوم- وأتى إلى مصر -القاهرة- يبتغي فيها الرزق ويطلب فيها المعاش، ويسوقه رزقُه يومًا إلى اللقاء بسعادة الشيخ حين تردّد للصلاة في مســجده، فيجذبه الشــيخ إلى حلقــة القراءة بمعهود بشاشــته، ورفيع ذوقه، وعــذب كلماته، فإذا هو لا يحســن أن يقرأ إلا شــيئًا لا يقيم الأحرف فضلا عن الكلمات والجُمَل، فيعكف الشــيخ مع تلميذه الكبير «مهدي» ليعلّمه القــراءة والكتابة في صبر وأناة حتى اســتطاع «الطالب العجوز» تلاوة القرآن ومع الخلطــة والدربة كان « حمــاي ووالد زوجتي الشــيخ عبد المهدي» يقرأ القرآن قراءة حســنَة جميلة تســمعها منه فتسمع قراءة غضّةً طريّةً ليست بالهذر ولكنّها قراءة مــن يعي معاني الكلام ويتدبّره، ولقد أخذ عن شــيخه الذي كان يختم القرآن في كلّ أســبوع عادته تلك، فكان ربما ختمه في أســبوع أو أكثر قليلًا، وهكذا استطاع «فضيلة شــيخنا عباس المصريّ» أن يرتفع بكلّ من لقيه إلى القرآن وهمّة أهل القرآن، وســل عن ذلك بوّابين ونجّارين

وحدّادين، تلقاهم فتلقى نور القرآن في وجوههم وكلماته في صدورهم، يعود الفضل - بعد الله - إلى «الشيخ عباس» الذي صبر على تعليمهم وتلقينهم.

لم يترك «الشيخ عباس المصريّ» كتبًا أو مؤلّفات، لكنه ترك نسخًا من الكتب والمؤلّفات تتحرك بين الأحياء وتعمل على تزكية النفوس وتطهير القلوب وإنارة الأفئدة بنور القرآن، منهم مَن هو اليوم شيخ شيوخ الإقراء في أمريكا وهو فضيلة شيخنا الدكتور وليد بن إدريس المنيسي - حفظه الله-، ومنهم من هو في المغرب كالشيخ الدكتور توفيق العبقري، ومنهم من هم في السعودية حين كان يعمل فيها أستاذًا بكلية الملك فهد الأمنية بالرياض، ومنهم من في ليبيا، فضلا عمن في مصر -وأولهم أبناؤه بنين وبنات- ومن كلّ بلاد الله كثير، جمعهم حول الشيخ علمُه ورفقُه الذي يصل إلى إحسانه بالمال على الفقراء من طلابه، فضلًا عن بذله مكتبته للطلاب، وهي التى تحوي مخطوطات سعى في شرائها بأغلى الأثمان، يستعيرون منها ويصوّرون ويقرؤون.

ومآثر الشيخ كثيرة لا زال غالبها حبيس صدور عارفيه ومحبيه، وأكثر منهم تلامذته، وحقّ الشيخ عليهم أن يبثُّوها في الطلاب والنّاس، وهو حق الدين أيضًا، فقد ندر في زماننا أن نرى أحدًا مثلَ الشيخ يجمع بين العلم والعمل، وكان تلميذه الوفيّ شيخنا الدكتور وليد قد وعد في رثائه لشيخه أن يكتب ترجمة وافية له، وهذه فرصة لنذكر شيخنا فيسعفنا بها.

وليس كثيرًا على الشـيخ أن يقوم بعض طلابه بزيارة إلى مسجده والحـيّ الذي كان يقطن فيه؛ ليتواصل مـع بقية طلابه ومحبيه ويجمع سـيرته، فإن فعل فسـوف يخرج بكثير جدًّا من المواقف وبالشـمائل التي تحتفّ بها، فلا زالت ذكرى الشـيخ العطرة تملأ عبق المكان، ولا تزال أحاديث الناس عنه تُثري المجالـس بطيب الثناء عليه، ولعلّ الله اسـتجاب بعض دعائه إذ كان يقول: «اللهم اجعل لي لسـانَ صدق في الآخرين».

فـي يـوم الاثنين ١٦ مـن شـوال لعـام ١٤٢٥هـ - الموافق ٢٩/ ١١/ ٢٠٠٤م اسـتردّ اللـه وديعته وتوفّى عبدَه الصالح -نحسـبه كذلك- «عباس مصطفى أنور إبراهيم المصري»، تودّعه دموعُ الصالحين وتسفِك عليه من حبّات قلوبها أسفًا على كلّ لحظة مضت في غير صحبته أو تأتي وهو فقيد كلّ أذن واعية سمعت به أو عين بصيرة رأته.

ومما قيل في رثائه:

حزنـي وحزن أحبتـي لا يوصف

وغدا جـراحًا في فؤادي ينزف

ودموعـيَ الحرّى تزيـد توجّعي

ودموع غيري للمصاب تخفّف

أمضي على وجهـي أقول بحرقةٍ

وأنـا بهمّي شـاردٌ متأسّـف

هل ودّع الشـــيخ حقـــا؟ ويحكم!

هو من يعز على الكرام ويشرُف

شـــيخ على نهـــج النّبـــي محمّدٍ

بالحلم والأخـــلاق فينا يعرف

بـــاع الحيـــاةَ بحســـنِها ونعيمِها

ويزينُـــه زهـــدٌ بهـــا وتقشُّـــف

والحقيقة أنـــي لا أعرف صاحبَ هذه الأبيـــات الجميلة إلا أنها ضُمّنت في ترجمة للشـــيخ ذيّلت باســـم الكريمين: جابر جاد محمد، محمد صالح محمـــد، وهما من طلابه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكلمات الأبيات الرائقة كتبت بقلم المحبّ، المفجوع بوفاة حبيبه الغالي، وحقٌّ في مثله التفجّع!

فكيف ظنّك برجلٍ على فراش الموت يمرّضه الأطباء وهو لا يفتأ يقول: علاجي فـــي الحور العين! ويكون آخر ما يقـــرأ عنده في إذاعة القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢﴾[1]، وتكون آخر أعماله من الدنيا الصلاة، فآخر شـــيء فعله أنه دخل عليه وقتُ الصبح وهو في العنايـــة المركزة، فطلب ترابًا فتيمّم، وطلـــب أن يُدخلوا عليه فضيلة شـــيخنا الدكتور محمد يســـري -حفظه الله- فدخل وصلى به الفجر فـــي جماعة ثم حدث التدهور والغيبوبة، فمـــا أفاق منها إلى أن توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(١) سورة النبأ، الآيتان: ٣١، ٣٢.

وحياة الشـــيخ مليئة بالعبر الظاهرة، لمن أراد أن يعتبر، رحم الله فضيلة الشـــيخ عبّاس المصريّ -رحمة واســـعة-، ورفـــع درجته في المهديين، وأخلف أمّة الإسلام في علمائها خيرًا.





القَرين

نحن الآن في ساحة الحق..

قد قام كل واحد من الحضور بواجبه أو فرط، مضت الآن المهلة التي كانت أعطيت لهم لأداء وظائفهم.

الكل الآن ينتظر الجزاء.. فبعض فرحين ينتظرون المثوبة وهؤلاء هم الذيــن أدوا أعمالهم كما طلبت منهم، وآخــرون وجلين ينتظرون العقوبة لأنهم أهملوا ما أســند إليهم من مهام.. فيا ترى كيف ســيكون الحكم فيهم.

فجأة نادى مناد من قبل الملك: تمايزوا؛ كل واحد يصطف مع من هو على شكله!

انصــاع الجميع للأمر وذهب كل واحــد منهم إلى الجهة التي لا ينكر من نفسه أنه ينتمي إليها، فصاروا فريقين: فائزين وخاسرين..

بقوا على ذلك مدة طويلة..

أخيرًا أمر بهم فجاءهم حراس كثر أرشــدوهم إلى أماكنهم التي يستقرون فيها..

كان الحراس كذلك فريقين، بعضهم يبتسم والآخر عابس، فذهب الأولون إلى الأولين وبقي الآخرون مع الخاسرين!

وحانت ساعة توزيع الجوائز..

يا لها من ســاعة مرت على صاحبنا وهــو يتذكر تلك الأحداث؛ لا يصدق نفســه كيف مرت عليه تلك اللحظات وانتهت به أن كان من الفائزين المنعمين؟

خطر هذا كله على باله حين كان مــع زوجته وأبنائه على الطعام الشــهي اللذيذ الذي لم تر عينه مثله من قبــل، وقد ازداد طعمه حلاوة بامرأته التي لو أطلت بوجهها لأضاءت ما بين السماء والأرض، أي نور وجمال في وجهها، وإنها لتزداد نورًا وجمالًا كلما فارقها وعاد إليها ولو لحظات!

كم هو في نعمة يغبط نفسه عليها بين هذه المتع الكثيرة المتنوعة الأبدية الخالدة التي لن تنتهي..

قرر أن يكون موضع السَّــمَر مع أصدقائــه الليلة عن هذا الخاطر الذي داعب خياله اليوم.

أخيرًا أراد أن يقوم عن هذا الطعــام الذي لا يمل تناوله ولا تريد نفسه أن يتركه، وحول نظره إلى الحوراء النجلاء ذات الكحل والملاحة والحســن والبهاء وتبسم قائلًا: شبعت ليرفع الطعام، فأشارت بابتسامة من طرف عينها لوصيفات كثر حولها، فشرعن يشرن إلى الطعام فيرتفع أو كأنهن أشرن إليه.

بينما هو يتأمل اللؤلؤ الأبيض الرطب الصافي البهي الذي يشــع من وجه الحسناء التي أمامه داعبه الخاطر مرة أخرى فاستأذنها بلطف:

كاملة الأوصـــاف وجميلة النعوت! ســـأجتمع ببعض أصحابي ساعة وأعود!

مالـــت عليه الغادة الحســـناء بتودد وتحبب وهمســـت في أذنه: مرحى، لك طبعًا كل ما تشاء، وأنا هنا أنتظرك بأشواق.

لله، ما جمعت تلك الخيرة من المحاســـن ظاهرًا وباطنًا، فكمل خَلْقها وخُلُقها، وكما يحار فيها الطـــرف أين ينظر، يحار كذلك العقل بأي محاسنها يعجب..

ثم انطلق يســـعى بعد نظرات وخفقات ولمســـات، لذلك اللقاء الذي أعد هو فكرة حواره الليلة ومحور حديثه..

انطلق صاحبنا للقاء ندمائه في الجنة، على موعدهم المنتظر للهو والسمر، وحينما وصلت به سيارته الفارهة إلى هناك وجدهم يتوافدون في مواعيدهم، كل بســـيارته ومركبته فمن راكب على نسر عملاق ومن راكب فرسًـــا له أجنحة يطير به أو يمشي على الأرض ومن راكب طائرة أو حوامة خاصة تســـير أحيانًا وتطير أحيانًا كل وما يشـــاؤه، وكل ذلك من جواهر نفيسة، أدومها وجودًا، وأنصعها لونًا، وأصفاها جوهرًا، وله سرعة حركة، وسرعة انتقال تفوق كل ما يتصوره الإنسان.

دلفوا جميعًا إلى غرفة فســـيحة رائعة النقـــوش، لم ير مثلها قط، في هندســـتها وبنيانها وزخرفتها وهوائها فجلســـوا على الأرائك بخفة ولطافة، وتوالت عليهم الثمار الطيبة اليانعة يقطفونها من أشجار تتدلى عليهم وتدنو منهم، فيتناولون منها ما يشتهون يأكلونه تنعمًا وتلذذًا.

وبينما هم يرحـــب بعضهم ببعض ويتصافحـــون.. بادر صاحبنا فقال: عندي لكم اليوم موضوع سمر رائع، لفت كلامه الأسماع فبادرته العيون مبتسمة تشـــجعه على الكلام، وخرجت كلمات من هنا وهناك تستحثه على المضي في الكلام، أن أفصح عن ما عندك وسارع به فلك كل الأسماع والألباب.

انطلـــق يقول: تعالوا بنا نتحدث بأي عمـــل أورثنا الله هذا النعيم وكيف وصلنا إلى هذا الفوز العظيم، هل يذكر أحد منكم الســـبب الذي لأجله دخـــل الجنة؟ فقالوا جميعًا نعم.. وابدأ أنت فكن قدوتنا في ذكر ذلك ونحن نتبعك.

صمت لحظة عاد خلالها إلى مرحلة مضت من حياته سافر بخياله هنالك بعيدًا يوم كان يعيش في الدنيـــا، وهو يتذكر اللحظات التي كان يعيشها، كأنها تحدث معه في هذه الساعة.

ثم التفت إلى أصحابه يقول: حينما كنت في الدنيا كان لي صاحب يقارنني في الســـن ويجاورني في البيت وقد نشأنا معًا وتربينا معًا، لكنه كان على غير الجادة، فلم يكن يصلي ولم يكن يلتزم الدين، وكنت أحدثه فـــي ذلك فأجد من كلامه ما يزعجني جدًّا حتى إنه كان ينكر البعث بعد الموت، ولطالما تحاورنا حول هذا الأمر فكانت كلماته تســـبق كلماتي كأنه يسكتني حتى لا أتكلم.

وليس هذا فحســـب، بل كان يراني على الخيـــر فينهاني عنه، إن رآني أتصدق قال: لماذا تضيع مالك؟

وإن رآني أتفرَّغ لعبادة ربي ساعة قال: لم تضيع وقتك فيما لا فائدة منه؟ وهكذا لقد كان يستهزئ بالدين ويقول إننا إذا متنا سنصير إلى عدم، ولن نبعث بعد الموت مرة ثانية، فيستحيل أن يعيدنا الله بعد ما صرنا ترابًا إلى الحياة مرة أخرى، فهذا شيء بعيد جدًّا ولا يصدق!

لقد كنت أجتهد في إقناعه وأسوق له من الدلائل القوية والحجج الكبيرة على ذلك الشيء الكثير مما نراه ونحسه من حولنا، فهذه المظالم وهذه الابتلاءات التي يتعرض لها بعض الناس من الطغاة والمتجبرين هل يمكن أن تمر هكذا؟

ألا من يوم يعاقب فيه الظالم ويعوَّض فيه المظلوم؟ هذا هو المستحيل حقًّا، ومن أراد أن يقنع نفسه أو غيره بهذا فإنه يدلس على نفسه الحقائق ويقلب الأمور على الوجه الذي لا تصح عليه في العقل السليم.

وحين وصلت إلى أنه لم يعد يستمع مني إلى الكلام تركته وابتعدت عنه حتى لا تصيبني أفكاره بالسوء، ولئلا يعطلني عن طريقي.

لقد انتهى الأمر به إلى الموت على اعتقاده ذاك رغم نصح الناصحين له، فكان من الخاسرين، وقد علمت أنه ذهب إلى الجحيم، ثم بدر إلى ذهنه خاطر عجيب فحدث به قائلًا: ألا نرجوا ربنا عز شأنه أن يطلعنا عليه الآن في النار لنرى ما أوصله إليه إلحاده وكفره ذاك؟

وكانت فكرة مبدعة جذابة فوافقوا جميعًا على ذلك.

ما إن ورد الخاطر على أذهان النبلاء الأكرمين إلا وانفتحت طاقة في الغرفة وقيل لهم: انظروا هنا، اطلعوا!

فاتجهت أنظارهم نحو المكان الذي يشار إليهم فيه وإذا هو النار بسعيرها وحرِّها، فشدهت أبصارهم لهول ما يرون من عذاب أهلها وما يقاسون فيها، وأدركوا نعمة ربهم عليهم إذ أنقذهم منها، وظلوا يتأملون ويحمدون، لا تكف ألسنتهم عن قول: ربنا لك الحمد.

كانت الطاقة تدور على أهل النار تكشف فريقًا منهم بعد فريق وكان صاحبنا معلقًا نظره بالأشخاص يبحث عن صاحبه، حتى إذا مرت الطاقة من فوقه ظهر له ولاح، لقد كان في أصل الجحيم وسوائه في قعر جهنم هنالك وأسفلها، ولولا أن الله عرفه إياه ما عرفه، لقد تغير شكله ولونه وتبدلت أحواله، لم يعد بتلك النضرة والقوة التي كان عليهما في الدنيا لم يعد له ذلك الشباب والجمال وحسن الهندام والغنى والمال والحشم والخدم والعيال الذين أضلوه عن رؤية الحقائق وشغلوه عن الاعتبار بالدلائل!

فأول ما وقع نظره عليه ناداه: يا فلان!

فنظر صاحبه إليه مشدوهًا لا يكاد يصدق أو ذكره أحد فيناديه؟ ثم رفع بصره حيث الصوت فجاءته كلمات صاحبنا تحمل كل معاني العتب واللوم: تالله إن كدت في الدنيا لتهلكني بصدك إياي عن الإيمان بالبعث والثواب والعقاب، ثم قال في امتنان: ولولا أن الله أنعم عليّ بهدايته، والتوفيق للإيمان بالبعث بعد الموت، لكنتُ من المحضَرِين معك في عذاب الله!

يا هذا؟ ما قولك الآن؟ أفما نحن بمبعوثين، أما هنا آخرة، أما هنا جحيم لمن كذب ونعيم لمن صدق؟

الآن نعم، لا موت، فأنت فيما أنـــت فيه وأنا فيما أنا فيه، فالحمد لله الذي ثبتنا علـــى الخير، وأذاقك جزاء كذبـــك وافترائك على ربك وإضلالك لمن أضللتهم ممن كنت تزين لهم الكفر والإلحاد.

وإن هذا الذي أعطاناه الله من الكرامة في الجنة، أنا لا نعذب ولا نموت لهو النَّجاء العظيم مما كنا في الدنيا نحذر من عقاب الله، وإدراك ما كنا فيها نؤمل بإيماننا وطاعتنا ربنا، فالحمد لله.

ولمثل هذا الذي أعطاني اللـــه تعالى وأصحابي هؤلاء المؤمنين من الكرامة في الآخرة، كنا نعمل في الدنيا، لندرك ما أدركنا بطاعة ربنا فلك الحمد ربنا.

هتف الجميع: لك الحمد ربنا، لك الحمد ربنا.

وانطلقـــت هنالك أصوات قبيحة تصرخ: ربنـــا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون، وصرخ الصديق الملحد على صديقه المؤمن: أفض عليَّ من الماء أو مما رزقك الله..

وتوالت الصرخات، فتباعـــدت الطاقة حتى لا تؤذي الصرخات أســـماعَ المكرمين وقلوبَهم، وابتعدت المسافة ثم غابت الطاقة وغاب المشهد، وعاد المؤمنون يكملون ســـمرهم العذب ويتنعمون بنعيمهم الأبدي.







حِيلة والد

تأخّر أحمد طه ريان في حفظ القرآن الكريم..

فماذا فعل والده؟

كانت سن أحمد وقتها عشر سنوات.. لا أكثر!

ورغم ذلك رأى الوالد أن تحصيل ولده لستة أجزاء فقط من القرآن الكريم حتى هذا الوقت من العمر قليل جدًّا..

وقرّر أن لا يسكت على ذلك.

لكنه احتار في العمل الذي يفعله

فاستشار أصدقاءه

فأشار عليه أحدهم قائلًا: احرمه من الملابس، لا تشتر له جديدًا حتى يختم القرآن.

أعجبت الوالد الفكرة..

وانتظر حتى تواتيه الفرصة المناسبة

ولم تمهله الأيام كثيرًا

قد اطلع الله على حسن نيته لا ريب.

إذ ســريعًا ما جــاءت أنبــاء أن أحمد ولده تعدى علــى زميل له بالضرب حتى وصل الأمر إلى أن خلــع أحمد حذاءه الجديد وضرب به زميله..

ما إن سمع الوالد الأنباء حتى خرج مسرعًا إلى حيث جرت الوقعة ويوجد الولدان، وحين أبصر ولده، ضربه، ولم يكتف بهذا بل عمد إلى حذائه الجديد فخلعه من قدميه..

تدرون ماذا فعل الوالد بالحذاء؟

لقد قام الوالد بتمزيق الحذاء الجديد.

وأقسم ألا يأتي لابنه أحمد بحذاء ولا ملابس جديدة حتى يحفظ القرآن كاملًا!

ووقع الأمر كالصاعقة على الولد وأمه وذويه

لقد كان بين بيت الشيخ أحمد طه ريان وبين مكتب التحفيظ الذي يحفظ فيه القرآن الكريم مســافة تصل إلى اثنين من الكيلو مترات، وإن كانت مســألة الملابس الجديدة محتملة فلا تحتمل مســألة عدم شراء حذاء للولد يمشي به بين البيت والكتاب كل هذه المسافة!

ومن هنا تدخلت الوســاطات لتحول بين الوالد وبين ما أقســم عليه، ليشــتري الحذاء ويكفر عن يمينه، ولم تفلح الوساطات في إثناء الوالد عن القسم..

كيف وهو الذي كان ينتظر الفرصة على أحرّ من الجمر؟!

وما كان أمام الجميع إلا الرضوخ لقسم الوالد وما كان أمام ابنه أحمد إلا أن يلتزم بقسم والده..

فتحمل أن يمشي حافيًا هذه المسافة طوال مدة حفظه القرآن صيفًا وشتاء والتي استغرقت عامًا كاملًا، فأفاض الله على الوالد والولد من كرمه وكان فضله سبحانه وتعالى عليهما كبيرًا حيث مَنَّ الله على الولد في نهاية هذا العام بحفظ أربعة وعشرين جزءًا ليختم بذلك القرآن الكريم كاملا.

ومن يعرف العلامة الأستاذ الدكتور أحمد طه ريان اليوم يعرف ما هو أثر تلك التربية وثمرة هذه الحيلة ويدرك أية منّة منّها عليه والده حين حرمه سنة من حذاء وتوَّجَه طيلة العمر بتاج الكرامة والعلم.







هذه قدوتك، أيها الجد والجـدة، أيها الوالد والوالدة، أيها الولد والبنت، قدوتنا في الطريق إلى رضا ربنا، وطريق رضا ربنا غايته واحدة ووسائله كثيرة، فمن وسائله: العلم، كما رأينا في حياة «الإمام محمد بن إسماعيل البخاري»، «الشيخ زكريا الأنصاري» وحياة «كريمة المروزية» وحياة «الغزاليَّان: محمد وأحمد»، ومن وسـائله: سلوك طريق الهداية والبحث عن الحق كمـا رأينا في حياة «عداس النينوي» وحياة «زيد بن عمرو بن نفيل»، ومن وسـائله: قول الحق والجهر به كما رأينا في حياة «أسماء بنت أبي بكر الصديق» وحياة «البويطي» وحياة «بنان الحمال»، ومن وسائله: في الدعوة إلى دين الله كما رأينا في سيرة «الشيخ صفوت نور الدين»، ومن وسـائله: حفظ القرآن وتعلمـه وتعليمه كما رأينا في حياة «الشـيخ عباس المصري» وحياة «الشـيخ أحمد طه ريَّان»، ومن وسائله: الصحبة الصالحة كما قرأنا في قصة «القرين».

ومن اللافـت للنظر في هذه القصص التي أصبـح أبطالها قدوة عظيمة على مدار التاريخ أن فيهـم الفقير الذي لم يمنعه فقره أن يكون أعلم أهل زمانه أو أن يقول الحق حيث وجب عليه ذلك، وفيهم الصغير الذي لم يمنعـه صغره أن يتفوق علـى أقرانه، وفيهم المـرأة والبنت

الصغيرة التي لم تمنعها أنوثتها أن تتفوق على كثير من النســاء، وفيهم الأجير الضعيف الذي وصل إلى ما لــم يصل إليه الأغنياء الأقوياء من الهداية والمعرفة، وفيهم من لم تمنعه عادات قومه وحالة بيئته أن يسعى في الأرض يسأل ويفكر بعقله خارج هذه البيئة حتى يقف على الحقائق فوصل إليها.. وهكذا فمن جدَّ وجَد ومن سعى وصَل ومن ذاكر حصَّل، ولا علاقة للأمر مطلقًا بالســن أو المال أو المنصب وما شــابه ذلك.. المهم أن تجد من نفسك الهمة والنشاط ومن روحك العزيمة والإرادة ومن أعضائك السعي والحركة، متوكلًا على الله سائلًا إياه الهداية وهو سبحانه يهدي الصادقين.

وإلى لقاء آخر قريب مع كتاب جديد.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

أحمد الجوهري محمد عبد الجواد

تم بحمد الله



إهداء ٥
كلمة في البداية ٧
مقدمة الكتاب ٩
شمس الأئمة ١١
رحلة النور ٤١
فجر الهداية ٥٧
ملكة تاجها السمو بالحق ٦٧
شهيد الحقيقة ٧٣
بدر المحدثين ٨٥
حامل أمانة الدين إلى الأجيال ٩٥
الغزاليان ١٠٣
حياتنا.. في خدمة الدين ١٠٩
نحن للدين فداء ١١٧
في صحبة القرآن ١٢١
القرين ١٣١
حيلة والد ١٣٩
خاتمة ١٤٣

